في العثور على وطن يعمه السلام لم يتحقق كما تورط اليهود هنا أيضاً في صراعات عسكرية- هذه المرة بين الروس والأتراك.

كان هناك تطور مثير للأحداث في بولندا التابعة لبروسيا. تحت تأثير الظروف الجديدة - خاصة الاتصال باليهود الألمان والفرص الاقتصادية السانحة التي رجحت من كفة الميل تجاه الاندماج- تحول يهود شرق أوروبا هناك بشكل تدريجي إلى "يهود غربيين". بيد أن النزعة الأرثوذوكسية ظلت تطغى على إيمانهم وأقاموا صلات متعددة مع اليهود في الأراضي الأخرى من بولندا المقسمة.

obeikandl.com

الجزء الثالث

أزمة اليهود في أوروبا الشرقية

هوية جديدة

تغير دور الوسيط التقليدي

لقد كان دور الوساطة بين الريف والمدينة الوظيفة الاقتصادية المحورية لليهود بشرق أوروبا . بمقتضى عملهم كأصحاب حانات و أصحاب حوانيت صغيرة و تجار و باعة جائلين و مستأجرين و إداريين ، أقام اليهود صلات بين النبلاء الإقطاعيين والفلاحين والحرفيين في الريف والحضر وكبار التجار والمقاولين في إطار نظام الدورة الاقتصادية. نتيجة لذلك ، تورط اليهود في الصراعات الاجتماعية التي كانت تنشأ بين طبقة النبلاء من جهة والفلاحين من جهة أخرى. في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان التعايش التكافلي بين اليهود وطبقة النبلاء قد بدأ في الانهيار. منذ نهايةٍ القرن الثامن عشر يجد المرء بين الإجراءات التشريعية مرارا وتكرارا محاولات لإكراه اليهود على ترك العمل في إدارة الحانات أو حتى على

الرحيل التام من القرى. يتعين علينا الآن النظر إلى خلفية هذا التطور في الأحداث الذي استمر بنفس القوة خلال القرن التاسع عشر. مرة أخرى، كانت بولندا قائمة في مركز الأحداث.

في بداية القرن التاسع عشر، وقعت أوروبا الوسطى في براثن أزمة زراعية إقليمية. فقد تم تخصيص منتجات الزراعة الأحادية للحبوب بأراضي السادة الإقطاعيين لأغراض التصدير بسبب الركود الذي شهدته معدلات الطلب من الحضر على الحبوب الغذائية. وقد أدى الإنتاج الذي شجعته أسعار القمح المرتفعة في مناطق التصدير إلى المضاربات والمعاملات التجارية الخطيرة بالدين قرب نهاية القرن. وقد تسببت الحروب النابليونية في حدوث أزمة مبيعات وأزمة مالية. تكررت آثار هذه الأزمة عام ١٨١٩ حين أشعلت فتيل الأزمة التعريفة الوقائية التي فرضتها بريطانيا. عندما قامت حكومة بروسيا أيضاً في عام ١٨٢٣برفع التعريفة الجمركية على المنتجات الزراعية بشكل كبير، انخفضت معدلات الصادرات البولندية من الحبوب الزراعية من ميناء دانزج (يعرف الآن باسم جدانسك) بمعدل النصف. وقد انتهى الأمر بالكثير من النبلاء الذين كانوا يرزحون تحت وطأة الدين إلى الإفلاس. في الوقت ذاته كان على النبلاء إيجاد سبل للتخلص من محاصيلهم من الحبوب. وقد عثروا على ضالتهم في الطريقة المجربة وهي إنتاج المشروبات الكحولية والتي كان الفلاحون زبائنها الرئيسيين. لقد ساعدت النفايات التي تخلفها عملية إنتاج المشروبات الكحولية على حل مشكلة كيفية توفير علف للمواشي في فصل الشتاء. نتيجة لذلك، شهدت تجارة المواشي ازدهاراً كبيراً أيضا وأدى هذا إلى إمكانية تخصيب الأراضي الزراعية بالأسمدة بشكل مكثف مما نتج عنه تحسن ملحوظ في العملية الزراعية. وقد شهدت كل من عملية تربية الخراف على وجه الخصوص وصناعة النسيج ازدهاراً ملحوظاً.

كان لكل هذا تأثير مباشر على اليهود. فبإفلاس الكثير من السادة الإقطاعيين، فقد الكثير من اليهود مكانتهم كمستأجرين حيث قامت طبقة النبلاء التي ابتليت بالفقر بمزاحمتهم. لقد أثرت تجارة الحبوب المتدهورة بشكل سلبي على اليهود العاملين بهذا القطاع. الأهم من كل ذلك أن الصراع من أجل الحصول على نصيب في سوق بيع المشروبات الكحولية اتخذ منحى معاديا لليهود. في البداية، كانت طبقة النبلاء البولنديين قادرة على القضاء على منافسة البرجوازيين غير اليهود في المدن حيث أنهم كانوا معفيين من ضريبة بيع المشروبات الكحولية بالتجزئة (حتى عام ١٨٤٤) وفي عام ١٨٢٣ تم إغلاق معامل التقطير الموجودة بتلك المدن التي لم تكن ملكية خاصة للنبلاء بموجب قرار من الدولة. قامت الدولة بعد ذلك باقتسام أرباح الإنتاج من المشروبات الكحولية مع النبلاء بعد تأسيس احتكار موازٍ لصالح الدولة عام ١٨٢٢. من أجل إيجاد بديل لأرباحهم الآخذة في الانخفاض عموما، سعى المزيد من النبلاء إلى إخراج اليهود من مجال إنتاج وبيع المشروبات الكحولية. تبنت الدولة- التي كانت لا تزال في ذلك الوقت دوقية وارسو- هذه الفكرة وفي ٣٠ أكتوبر ١٨١٢ أصدرت قرارا بمنع اليهود ابتداء من ١ يوليو ١٨١٤ فصاعدا من إنتاج وبيع المشروبات الكحولية. أجبرت الدولة النبلاء، الذين لم يكونوا على علم بتقنيات الإنتاج ولا كانت لديهم مهارات أصحاب الأعمال- أن يتكيفوا مع أساليب حياة جديدة بينما منعت في الوقت ذاته اليهود من الانخراط في أعمال بعينها تحت أية ظروف. سمح لأصحاب معامل التقطير الاحتفاظ بصانعي الخمر المحنكين من اليهود حتى الأول من يوليو ١٨١٥ فقط من أجل تعلم المهارات التقنية الأساسية.

نجم عن تنفيذ هذا القرار الكثير من الصعوبات- بسبب المثالب الاقتصادية التي كانت تعاني منها طبقة النبلاء- فتم إرجاء التطبيق

الكامل لهذا القرار. رغم ذلك، فرضت قيود قاسية على النشاط الاقتصادي لليهود الذي اتسع نطاقه عما كان عليه عند سريان "قانون اليهود" الذي فرض عليهم في ١٨٠٤ في المقاطعات الشرقية التي ضمتها روسيا إليها.

بعد عام ١٨١٥ ظل الهدف هو إخراج اليهود من تجارة المشروبات الكحولية والاقتصاد الإقطاعي وإن جاءت محاولات تحقيق هذا الهدف وئيدة للغاية. بزغت فرصة تحقيق هذا الهدف عند فرض استصدار اليهود لترخيص تجاري منذ ٨ يونيه ١٨١٤ والذي إضافة إلى تحقيق هذا الهدف أمد الدولة بمصدر إضافي للدخل. كانت الرسوم ترتفع بشكل مطرد. منذ مايو عام ١٨١٦، حظر على أصحاب الحانات اليهود تقديم المشروبات للفلاحين بالدين أو بالأجل أو باستخدام منتجاتهم الزراعية كضمان. من ثم، حرم اليهود من مصدر دخل كبير لأن البيع بالأجل كان يغري الكثير من الفلاحين – الذين لم يملكوا نقودا كافية– بالشرب بشراهة في الحانات منتظرين الحصاد المقبل لمحصولهم. في المجمل ما بين عامي ١٨١٩ و١٨٢٢ انخفض عدد اليهود العاملين في هذا المجال بشكل جذري. وقد يكون اكتشاف تقنية جديدة لتقطير المشروبات الكحولية لا تحتاج إلى اليهود لتشغيلها قد لعب دورا في هذا الانخفاض. عند المقارنة بعام ١٨١٣، فقط حوالي ١٢% من اليهود بقوا في مجال بيع وإنتاج المشروبات الكحولية في عام ١٨٣٠ ومن بين هؤلاء فقط حوالي ٧% فقط عاشوا في الريف. بهذه الطريقة تم فصم عرى الصلة التقليدية التي كانت تربط اليهود بالمجتمع بشقيه من النبلاء والفلاحين.

كلما نظرت طبقة النبلاء إلى اليهود باعتبارهم منافسة غير مرغوب بها، الأمر الذي كان من شانه الوقوف كحجر عثرة أمام إعادة هيكلتهم للاقتصاد الإقطاعي وفرض السيادة الكاملة على

القرية، ظهرت مشاعر البغض المعادية للسامية بشكل أكبر. تم رسم صورة أكثر إخافة لليهود بناء على التطورات الديموغرافية– أي معدلات النمو الأسرع للسكان اليهود مقارنة بالمسيحيين. كان الاعتقاد السائد أن اليهود ماكرون ومثابرون وليست لهم مطالب وأنهم غير متنورين وأصحاب عزيمة قوية ويتمتعون بالنفوذ في كل فروع الاقتصاد ويشاركون في كل المعاملات المالية– باختصار أنهم خطرون ومؤذون. من ثم كان من المنطقي وحسب للنبلاء أن يقوموا بكل شيء في وسعهم لمنع اليهود من الحصول على حقوق مساوية لهم ما هو السبيل الآخر الذي كان بوسع النبلاء من خلاله القضاء على اليهود كمنافسين لهم؟

كانت فرصة إخراج اليهود من البلاد على أساس قانون القيصر سلاحا آخر في هذا الصراع التنافسي. حتى حين لم تنجح هذه المحاولات؛ تدفق المزيد من اليهود إلى المدن. لم تستطع مزايا المدن المتبقية التي كانت تحظر إقامة اليهود بها إيقاف هذه الهجرة. كان أحد الحلول لهذا الموقف بناء مناطق أو جيتو معين خاص باليهود. لقد سمح قرار مايو ١٨٢٢ – الذي صيغ على غرار قانون الجيتو بوارسو عام ١٨٠٩– باتخاذ إجراءات مماثلة في كل المدن.

	١٨١٦		١٨٢٧	
اليهود بالمدن	١٤٤.٢٠٠	%٦٧.٧	٣٠٣.٨٠٠	%٨٠.٤
اليهود بالقرى	٦٨.٨٠٠	%٣٢.٣	٧٤.٠٠٠	%١٩.٦

نسبة اليهود إلى السكان في المدن	٢٧.٣%	٣٥.٣%

كانت نسبة اليهود إلى إجمالي عدد السكان بالمدن مرتفعة للغاية، خاصة في المدن الكبرى وفي المقاطعات الشمالية الشرقية. تدفق البرجوازيون الصغار إلى "المناطق اليهودية" الجديدة ونافسوا اليهود على فرص العمل المحدودة. أصبح عامة اليهود بشكل جلي من الفقراء وغالبا ما عاشوا تحت ظروف لا يمكن تخيلها فيما يتعلق بالإقامة والعمل والدخل. لقد خلق الفائض الكبير في الأيدي العاملة بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وليس لها مستقبل عددا كبيرا ممن يطلق عليهم اسم "لوفتمينشين" وترجمتها الحرفية "رجال الهواء"؛ ويقصد بهم الرجال الذين "ليس لديهم سوى الهواء ليعيشوا عليه" وهم بلا دخل ثابت ويعتمدون على التدافع اليومي بالمناكب من أجل الحصول على عمل موسمي لكسب الرزق (ارجع للقسم المعنون *لوفتمينشين* فيما بعد، خاصة الهامش رقم ٦). بمساعدة المعامل غير الشرعية لتقطير الشراب وتهريب المشروبات الكحولية، استطاع اليهود البقاء على قيد الحياة بطرق غير شرعية غير أنهم غالبا ما تورطوا في صراع دام مع اليهود المتبقين بالقرى.

على الجانب الآخر، نجح عدد قليل من أصحاب الأعمال والمصرفيين اليهود أن يصيبوا الثراء الفاحش. فقد جسدت حوالي ٤٠ أسرة من المليونيرات نموذج شخصية "الرأسمالي" اليهودي. كان يربط بين هذه الأسر أواصر أسرية معقدة وأنهم عاشوا بشكل رئيسي في مدينة وارسو حيث أن غالبيتهم كانوا من المهاجرين إلى بولندا. لكن كانت هناك أيضا طبقة عليا صغيرة في المدن الأخرى. كانت تعزى المكانة الخاصة التي تمتعت بها هذه الطبقة إلى تعاونها

الوثيق مع الحكومة. على سبيل المثال في عام ١٨٢٢ قام وزير المالية دروكي لوبيكي بتأجير احتكار المشروبات الكحولية المملوك للدولة لليهودي الليتواني نيواكويتش في نفس الوقت الذي كان فيه اليهود في الريف يطردون من مجال إنتاج وبيع المشروبات الكحولية. في عام ١٨١٦ قام بيريك سمول (صامويل) زونتبيرج بتأجير حق احتكار الملح المملوك للدولة. وقد جني "أصحاب الأعمال" اليهود من أمثال فرانكيل ونيومارك وبيرجسون أرباحهم من تقديم المؤن لجيوش دوقية وارسو وروسيا ومملكة بولندا. وحيث أن الحكومة غالبا ما لم تكن في وضع يسمح لها بسداد المبالغ المالية المستحقة في غضون المدة المحددة، استطاع الموردون اليهود – مع بعض التدخل من جانب الرأسماليين اليهود– إملاء الشروط التي يرونها. بدأت الطبقات غير اليهودية في العثور على مكان في مصاف البرجوازيين الكبار تدريجيا. كما أتاحت أنشطة اليهود من موردي المؤن للجيش فرصة ذهبية لتحميل اليهود بصفة عامة مسئولية ما أصاب الجنود والضباط من محن ؛ بسبب المؤن غير الكافية. تم تصوير اليهود تصويرا شيطانيا كمخادعين وطفيليين ومصاصي دماء ومتربحين من الحروب من أجل تشتيت الانتباه بعيداً عن أخطاء الحكومة والقيادة العسكرية. لاقت هذه الأفكار انتشارا سريعا خلال القرن التاسع عشر.

مارس أصحاب الأعمال اليهود شكلاً جديدا من أشكال الوساطة الاقتصادية بعد أن تم القضاء على اليهود بشكل كبير كوسطاء بين الريف والمدينة فقاموا بدور الوسيط بين النبلاء والفلاحين وأهل المدن من جهة وبين المنتجين والمسئولين عن تخصيص المنتجات الفائضة من جهة أخرى. أحدثت سياسة طبقة النبلاء البولندية صدعا بين الريف والمدينة سقط ضحية له الدور التقليدي الاقتصادي والاجتماعي لليهود. من ثمّ، غرق اليهود في أزمة هوية عميقة ظهرت معالمها في حياة الجماعة اليهودية وفي

المواقف الدينية أوالفكرية التي تبنوها . لقد ارتبط الدور التقليدي للوساطة بمجرد إنتاج البضائع التي يقوم اليهود – على أساس موقفهم القانوني المتميز فيما يتعلق بالمقايضة والبيع بالأجل– بتقديم خدمة وساطة هامة تتعلق بها . في إطار توجههم إلى الإنتاج المعقدٍ للبضائع ـأي إلى الطريقة الرأسمالية في الإنتاج – فقد اليهود تدريجيا مهمتهم الوظيفية. ظهرت طبقات اجتماعية جديدة دخلت في منافسة مع اليهود .نتيجة لذلك، في الوقت الذي كان فيه المجتمع يطرح "المسألة اليهودية"، تساءل اليهود أنفسهم عن مكانتهم الجديدة في هذا المجتمع وإدراكهم لذاتهم.

"الطرد" و"إعادة الهيكلة"

لم تكن الهجرة من الريف فقط هي ما جعل حال اليهود في المدن يصير إلى الأسوأ. فقد أدى التوجه نحو الصناعة، الذي بدأ بالتدريج أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلى التقليل من أهمية أنواع الأعمال التقليدية التي تحتاج إلى مهارة. بعد أن تم "طرد" الكثير من أفراد الجماعة اليهودية من مجال إنتاج وبيع الكحوليات وتأجير الأراضي بالقرى والآن أيضا من الأعمال التي تتطلب مهارة، علق المجتمع اليهودي في عملية إعادة هيكلة اقتصادية ـ اجتماعية مستدامة. لقد قدم الشاعر الشهير شوليم أليشيم وصفا قويا لعملية إعادة الهيكلة هذه في قصته "عيد الفصح اليهودي في القرية" إذ يقول:

في الوقت ذاته لم يكن لناشيم ويربيجوكر حياة بائسة كهذه في ويربيجوكا . بطبيعة الحال، لا وجه للمقارنة مع الأوقات الماضية. حين كان الجد آري لازال حيا، كان كل شيءٍ مختلفا . نعم، كانت تلك هي الأيام بحق! في ذلك الوقت تقريبا كانت جميع أراضي ويربيجوكا ملكا له. لم تكن لديه مشروعا واحدا بل عدة مشاريع حانة وبقالة وطاحونة ومخزن للحبوب ؛ وبذلك لم ينقصهم شيء .

بيد أن هذا كان في الماضي ولم يعد الحال هكذا. لم يعد هناك حانة ولا بقالة ولا مخزن حبوب. لا شيء ... لا شيء على الإطلاق بقي له. قد تتساءل لماذا لا يزال اليهود يعيشون في ويربيجوكا. لكن، في أي بلد آخر ينبغي أن يعيشوا؟ تحت الأرض؟ حتى وإن كانت الفكرة خطرت ببال ناخمان بأن يبيع بيته الصغير، فلم يكن ليكون ويربجوكر بعد ذلك. كان الناس سينظرون إليه كمتطفل على التجارة وغريب. على الأقل، لديه ركنه الخاص به وحجرته الخاصة وحديقته التي تعتني بها كل من زوجته وابنته. بمعونة الرب، لدى المرء من الخضراوات ما يكفي فصل الصيف ومن البطاطس ما يكفي فصل الشتاء إلى ما بعد عيد الفصح اليهودي. غير أنك لا يمكنك أن تقتات على البطاطس فقط. فالمرء يحتاج أيضا إلى الخبز ولم يكن ناخمان يملك الخبز. لذا، فقد أخذ عصاه وهام على وجهه في القرية. إنه يقظ على الدوام تحسبا لأي شيء يمكن التجارة فيه وعندما كان ناخمان يهيم على وجهه في القرية من أجل التجارة، لم يعد أبدا خاوي الوفاض. كان يبيع ما ينعم الرب به عليه – لوحا حديديا صغيرا، أو إناءً به بعض من حبة الدخن أو جوالا قديما أو حتى أحيانا فراءً. كان يقوم بفرد الفراء وتجفيفه ثم أخذه لصانع الفراء أفرام إلياهو في المدينة. غير أنه في جميع تلك المعاملات التجارية يمكن للمرء جني الأرباح ويمكنه أيضا تكبد الخسائر. لهذا يتاجر المرء "فالتاجر كالقناص" كما يقول ناخمان الذي دائما ما كان يتفوه بأمثلة روسية.[٥٩]

---

[٥٩] شوليم أليشم، "الفصح اليهودي في القرية"، في حكايات يديشية كتبها ميندبل مويخر سفوريم وأيزاك لايب بيريتز وشوليم أيشيم، تحرير ليو نادلمان (زيوريخ، ١٩٨٤)، ص. ٣١٠- ٣٢٥، هنا ص. ٣١٣ بالكامل.

في فقرة أخرى من أشهر رواياته "تيفر بائع الحليب"، يصور شوليم أليشيم مدى التدهور الذي كان من الممكن أن تصل إليه أوضاع بعض الحرفيين. تسايتيل، ابنة بائع الحليب ستتزوج من قصاب ثري، ثم يقرر الرحالة الفقير موتل كاميزول زيارة تيفر وأن يطلب شخصيا يد ابنته التي كان يحبها لفترة طويلة خلافا للعادة السائدة آنذاك بإرسال وسيط الزيجات أولا.

حين تفوه بهذه الكلمات، قفزت من مكاني وكأنني سكب على ماء ساخن. لقد قفز هو أيضا من مكانه، وبدا وقفنا يواجه كل منا الآخر كديكين... كنت أفضل لو أن شخصا طعنني في قلبي بسكين على أن أسمع هذه الكلمات ... كيف استطاع هو، موتل، الخياط أن يصبح صهر تيفر؟

ثم يقول موتل:

"لقد أردت ... مراراً أن أحادثك بهذا الشان، غير أنني دائماً ما كنت أؤجل الحديث حتى استطعت أن أدخر روبلات قليلة فاستطعت شراء ماكينة خياطة ومن ثمّ أجهز نفسي بالصورة اللائقة. لأن الشاب الذي يفخر بنفسه يحتاج إلى بزتين وصدرية هذه الأيام ..." قلت له "يجب على الأرض أن تنشق لتبلعك فأنت تفكر كالأطفال! ماذا ستفعل بعد الزواج؟ هل ستموت من الجوع أم ستطعم زوجتك من صدريتك؟" فقال لي: "آي! إنني مندهش منك ياحاخام تيفير لقولك مثل هذا الكلام! أعني أنك لم تكن تملك منزلك الذي كنت تقيم به حين تزوجت. وكما ترى لقد سارت الأمور على ما يرام. على أي حال، فالذي سيحل بيني إسرائيل أجمعين سيحل أيضا بالحاخام إسرائيل... على أي الأحوال، أنا حرفي."

سمح تيفي لنفسه بأن يقتنع بهذا الحديث وتمكن من إقناع زوجته جولد بالحيلة رغم أنها في البداية تعجبت:سألتني جولد

"كيف يتسنى لخياط أن ينضم إلى أفراد أسرتنا ؟" "في أسرتنا ؟" أعادت القول. "لقد كان بعائلتنا مدرسون وأئمة للصلاة وحراس لبوابات المدارس وموظفون بجمعية مراسم الدفن وآخرون من الفقراء، ولكن –معاذ الرب– لم يكن من بينهم أبدا لا خياطون ولا إسكافيون."

تزوج موتل وتسايّل وقال تيفي: ويعيش الزوجان الشابان معاً – لله الحمد– في سعادة غامرة. هو خياط يذهب إلى بوبيريك متنقلاً منزل صيفي إلى آخر ويأخذ طلبيات العمل، وهي ترزح تحت نير الزوجية ليل نهار. فهي تطبخ وتخبز وتغسل الملابس وتقوم بأعمال التنظيف وتجلب المياه، ورغم كل هذا فهم بالكاد يملكون شيئاً ليأكلوه. إن لم أجلب لهم بعض الجبن والحليب أو بعض عملات الجروشن من وقت لآخر، لواجهوا المصاعب.

لوفتمينشن (رجال الهواء) في الواقع كان المجتمع اليهودي متمايزاً بشكل جلي على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، وعانى المجتمع اليهودي انقساما داخليا. فقد أضحى غالبية اليهود أكثر فقرا. لقد ناضلوا كتجار صغار أو باعة جائلين أو حتى كلوفتمينشين. فلنقرأ كلمات تيفي مرة أخرى:

الآن في هذا الوقت كنت شحاذاً تماماً. لأقول الحق، لم أعد رجلاً ثرياً حتى الآن ... ولكن على أية حال، مقارنة بتلك الأيام، فأنا رجل ثري فأنا أملك حصاني وعربتي وأيضا – امسك الخشب. لدي بعض البقرات التي يمكن حلبها وقريبا ستلد إحداها. لأقول الحق، كل يوم أحصل على الجبن والحليب والقشدة الطازجة، وكل شيء أصنعه بيدي لأننا جميعا نعمل ولا يجلس أي منا عاطلاً.

---

[٦٠] شوليم أليشيم، تيفي بائع الحليب (ليبزيج، ١٩٨٤)، ص. ٦٤ و ٦٨ بالكامل.

فزوجتي- بارك الرب فيها- تحلب الأبقار. أما الأطفال فيحملون أقساط الحليب ويصنعون الزبد، وأنا يمكنكم رؤيتي هناك أذهب إلى السوق كل صباح وأعبر بوبيريك لأتنقل من منزل صيفي إلى آخر وأحيانا أبرم اتفاقات حتى مع أكثر الرجال تميزا من بيهوبيتس. وحين تختلط بالناس وتحادثهم، تشعر أنك فرد في هذا العالم أيضا ولست فقط خياطا نزقا... [كان هذا قبل أن يحظى بصهره! هـ. هـ.]. نعم، في هذا الوقت بمعونة الرب كنت شحاذا بائسا كنت أموت من الجوع ثلاث مرات في اليوم الواحد أنا وزوجتي وأبنائي. كنت أعمل كالحصان وكنت أجر ألواحا من الخشب من الغابة وحتى السكة الحديد؛ حمولة عربات كاملة من ألواح الخشب ومقابل هذا كنت أحصل على، أتمنى ألا تعترضوا على المبلغ، ٣٠ كوبك في اليوم ولم أكن أحصل على كل هذا المبلغ كل يوم. وبهذا المبلغ، كان على، امسك الخشب، أن أعول حجرة كاملة ممتلئة عن آخرها بأفواه جائعة وبالطبع هناك فارق بين الناس والحيوانات والحصان أيضا ...!

على ما يبدو قدم مندل مويخر سفوريم مفهوم *لوقتمينشين* إلى الأدب اليديشي حين قدم قاطني الشتيتل في قصته "خاتم التيمني" التي نشرت عام ١٨٦٥.[٦١] سريعا ما أصبح هذا المصطلح ذائعا، ثم لقي رواجا بعد ذلك كوصف لهؤلاء الذين عانوا من الفقر المدقع؛ الذين لم يعرفوا في الصباح كيف سيبقون على قيد الحياة حتى المساء. هؤلاء الذين إستغلوا جميع الفرص لكسب بعض المال أو الطعام، ولكنهم أيضا حاولوا التكيف مع ظروفهم الجديدة وأن "يقوموا بالمضاربة". كما ينطوي هذا المصطلح على معنى السخرية من الذات وشيء من الثقة والرقي إلى جانب الافتقار إلى الثقل الذي وصفه مارك شاجال (١٨٨٧- ١٩٨٥) عدة مرات ما بين عامي

[٦١] أعرب عن امتناني لديسانكا شفارا لهذا المصدر.

١٩١٤ و١٩٢٢ مع صور لليهود يتنقلون فوق أسطح فايتبسك بعصا في أيديهم وحقيبة مدلاة من فوق أكتافهم.[٦٢] في نهاية القرن التاسع عشر في الكثير من الجماعات اليهودية، "تكون حوالي ٤٠ بالمائة من إجمالي عدد السكان اليهود ممن يطلق عليهم اسم أسر اللوفتمينشين:

---

[٦٢]لعب هذا المصطلح أيضاً دوراً مهماً بالنسبة للصهاينة. في المؤتمر الصهيوني الأول ببازل عام ١٨٩٧، تحدث ديفيد فاربشتاين عن الفقراء الذين "يقتاتون على الهواء" (مؤتمر الجماعات الصهيونية في بازل) [٢٩ و ٣٠ و ٣١ أغسطس ١٨٩٧]، البروتوكول الرسمي [فيينا، ١٨٩٨]، ص. ١٠٤) وفي المؤتمر الخامس في بازل عام ١٩٠١ وصف ماكس ناردو "لوفتمينشين" بأنها "نمط يهودي متفرد". فمعاً يشكل "الكثير من رجال الهواء أمة الهواء". لهذا احتاج اليهود في النهاية إلى وطن خاص بهم (ماكس نوردو، كتابات صهيونية، تحرير لجنة العمل الصهيونية [كولونيا، ليبزيج، ١٩٠٩]، ص. ١١٧- ١١٨، قارن مع ص. ١٢٩). على الجانب الآخر، فكر في الاستعمار لفلسطين دون ضمانات سياسية- في عبارة وجهت ضد يهود شرق أوروبا الصهيونيين- باحتقار وصفوا [بعمل من الهواء يقوم به رجال الهواء] (من مقابلة نشرت عام ١٩٠٧ في صحيفة العالم ، أوردتها أنجيليكا مونتيل، هيرتزيل، حول تأسيس العالم. عن التغيرات والمثالب . من "عالم" هيرتزل حتى "توضيح عالم جديد" ١٨٩٧- ١٩٩٧، تحرير جوانا نيتنبرج وأنطون بيلينكا وروبرت س. فيستريش [فيينا، ١٩٩٧]، ص. ١٩- ٦٦، هنا ص. ٤٣). نعت الصهيوني الماركسي بير بوروخوف العمال اليهود بأنهم "بروليتاريا الهواء" لأنهم كانوا يعثرون بالكاد على وظائف في الصناعة الحديثة (ماتيتياهو مينتز، "بير بوروخوف"، في دراسات حول الصهيونية ٥ [١٩٨٢]، ص. ٣٣- ٥٣، هنا ص. ٣٦). لتوضيح نطاق استخدام المصطلح، سأستشد بكلمات هانا أريندت، التي أشارت إلى أولئك "رجال الهواء" المفكرين " بين اليهود الغربيين" الذين على الرغم من تمتعهم بالأمان الاقتصادي لم يستطيعوا أن يجدوا مكاناً لهم في المجتمع اليهودي أو غير اليهودي (هانا أريندت، أزمة الصهيونية، مقالات وتعليقات]، تحرير أيكه جايزيل وكلاوس بيترمان [برلين، ١٩٨٩]، ص. ٦٤).

أي أناس بلا تعليم أو رؤوس أموال أو أية تجارة بعينها."[٦٣] إلى جانب هؤلاء الذين "أكرهوا على ترك" حرفهم السابقة والذين يقتاتون الآن على الهواء أو الذين انخرطوا في "تجارة الهواء"، كتب إسحاق بابل يقول: "كما تقول أمي باركها الرب: "الهواء يصيبك بالبرد"[٦٤]

في مدينة أوديسا طوف "اللوفتمينشين" بين المقاهي من أجل كسب روبل واحد لإطعام أسرهم، لكن لم يكن هناك ما يكسبونه وبأي حال ما الذي يجعل أي شخص يبذل أي عطاء لشخص عديم النفع، "لوفتمينشين"؟[٦٥] بصفة متكررة، استطاعت هذه الفئة البقاء فقط بفضل الإحسان اليهودي الجماعي والفردي. التغير في الهيكل الوظيفي وأنشطة وساطة جديدة يمكن تفسير هذا التمايز والانقسام بشكل أوضح قليلاً من خلال النظر إلى الهيكل الوظيفي قرابة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وفقا لتعداد أجري عام ١٨٩٧، عاش ٥.٢ مليون يهودي في الامبراطورية الروسية وهو ما يمثل حوالي ٤% من إجمالي السكان. من بين هؤلاء ٤.٩ مليون- أي ١١.٥ % من إجمالي السكان هناك- عاشوا في منطقة الاستيطان. وفي هذه المنطقة بمملكة بولندا وحدها عاش ١.٣ مليون يهودي (١٤% من إجمالي السكان). لم يعش سوى ١٣.٥ بالمائة من اليهود بالريف، بينما عاشت النسبة المتبقية – حوالي ٨٦.٥%- في المدن. في هذا الوقت، كان الكثير من اليهود نشطين في مجالين رئيسيين للأعمال – التجارة والصرافة والائتمان من جهة والحرف اليدوية

---

[٦٣] سالو و. بارون، اليهود الروس في عهد قيصرين والسوفييت (نيويورك، ١٩٨٧)، الطبعة الثانية، ص. ٩٥.

[٦٤] شوليم أليشيم، مينا حيم مينديل المضارب، (ميونيخ، زيزريخ، ١٩٦٤)، ص. ١٢.

[٦٥] أيزاك بابل، أعمال، تحرير فريتز ميراو، الجزء الثاني (برلين، ١٩٧٣)، ص. ٩٣.

والصناعة والنقل من جهة أخرى- فقد انخرط في هذه المجالات ما يزيد عن ٤٠٪ من اليهود في أي وقت. بهذه الطريقة، أصبحت التجارة تدريجيا أهم مصدر للدخل بين اليهود، بينما في بدايات القرن أصبحت الحرف اليدوية أكثر أهمية. كان العدد المتزايد للمهن الحرة في الحقيقة بلا أي أهمية وكذلك لم تكن هناك أهمية للفرص المتقلصة للعمل بالزراعة أو بأي قطاعات اقتصادية آخرى.

هل يعني هذا أن وظيفة الوساطة التي اعتاد أن يضطلع بها اليهود كانت تقوم الآن على أساس مختلف؟ بنظرة أولية تكون الإجابة بالإثبات. عملت نسبة كبيرة من اليهود في بعض فروع التجارة: في تجارة الحبوب والفراء والجلود والباعة الجائلين. تمكن اليهود حتى من إحراز تقدم في إنتاج وبيع المشروبات الكحولية ولو بصفة مؤقتة على الأقل. في الوقت ذاته، تتضح عملية تركز رؤوس الأموال في ذلك الوقت بشكل جلي. وقعت التجارة تحت هيمنة عدد من كبار التجار. أما عامة التجار من اليهود فقد أضحوا أشد فقرا. تعرض "جوال القرية"، وهو الوسيط النموذجي الذي كان يشتري غرضا من هنا ويبيع غرضا صغيرا هناك ويعمل كوكيل لكبار التجار ويقوم برحلات مكوكية بين القرية والمدينة – لمصاعب أكثر جسامة. لقد ازدادت صعوبة عملية تقصي الثغرات في السوق وأضحت فرص تمويل المعاملات التجارية أقل بكثير. حتى التجارة المحلية في منتجات صناعة الملابس الجاهزة او منتجات الحرفيين اليهود كانت تنتقل إلى أيدي كبار التجار.

من الاستثناءات المثيرة في هذه العملية التجارة بالمدينة في المنتجات الجاهزة. بينما قام اليهود بتأسيس متاجر كبيرة في أوروبا الغربية وبولندا وروسيا، زالت المخاوف الشديدة ليحل محلها تراكم صغار التجار شديدي التخصص في الأسواق أو في الشوارع. وقف تجار التجزئة محتشدين إلى جانب بعضهم البعض ومعهم غالبا مجرد

القليل من المسامير والأحذية والمنتجات ذات الطابع الديني أو بعض الفاكهة. على البوابات وقف التجار اليهود ليعرضوا بضاعتهم للبيع على موائد ضيقة أو في صناديق للعرض. كانت المنافسة شديدة الضراوة والدخول شديدة الانخفاض. مرة أخرى، لعبت السمة التي جعلت للتجار اليهود في السابق ميزة على غيرهم من التجار دوراً كبيراً: أقصد هنا بساطة احتياجاتهم التي – على النقيض من الفكرة الذائعة عنهم– لم تكن تعبيراً عن نهمهم للمال أكثر منها تعبيراً عن التكيف مع الظروف المحيطة مما مكن اليهود من التكيف مع هوامش الربح المنخفضة للغاية. في النهاية، أدت هذه المزية إلى تلاشي قيمة حركات المقاطعة التي وجهت ضدهم والتي كانت إشارة إلى تزايد موجة العداء ضد السامية في بولندا. غير أن هذا الأمر وقف عائقاً أمام تنظيم المنافسة الداخلية بين اليهود بعضهم البعض. في نهاية القرن القرن التاسع عشر أفادت الملاحظات المسجلة أن التجار اليهود لم يعرضوا سلعهم للبيع بأسعار زهيدة فحسب، وإنما أيضاً:

كانت التجارة في المدن اليهودية أكثر لامركزية وأكثر تأقلماً مع احتياجات المستهلك، خلافاً للحال خارج منطقة الاستيطان. في الأقاليم المركزية تمركزت التجارة بشكل رئيسي في "مجالات" بعينها أو في المنطقة المحيطة بمكان السوق، بينما في المدن اليهودية كانت توجد محال أكبر في جميع المناطق. كانت المدن اليهودية أيضاً أكثر تقدماً من المدن في الأقاليم المركزية من حيث التخصص. ... تستطيع التجارة المتخصصة هنا أن تقدم للجمهور خيارات أوسع في كل غرض من الأغراض.[٦٦]

بشأن الانقسام المتزايد الذي شهده المجتمع اليهودي، فقد احتل الصرافون الذين – بطريقة ما– كانوا يواصلون دورهم التقليدي

---

[٦٦] أنسيلم هيلمان، الأنظمة التعاونية اليهودية في روسيا (برلين، ١٩١١)، ص. ٣٣

كوسطاء ماليين للحكومة والأمراء– قمة الهرم. لقد استغل الصرافون فرصة تزايد الحاجة إلى السيولة المالية حيث ازدادت التعاملات المالية مع تطور الاتجاه إلى الصناعة وإنشاء خطوط السكك الحديد وتطور تجارة الجملة. رغم أنهم ظلوا أقلية من حيث العدد، كأن الخبراء الماليون أكثر اليهود ثراء ونفوذا وفوق كل ذلك تمركزوا في مدينة وارسو. من بين هذه الفئة الصغيرة، تواجد في المدن الكبرى وكذلك المدن الصغيرة عدد كبير من الصرافين لتغيير العملات المالية إلى جانب الكثير من مقرضي الأموال الذين كانوا يحملون معهم "مصرفهم" في جيوبهم."[٦٧] وبشكل ما كسبوا رزقهم.

بهذا الشكل، ازدادت المهمة الوظيفية لليهود كوسطاء تعقيداً. لم تعد التجارة تقوم على المقايضة المباشرة لسلعة بسلعة – العملية التي يلعب فيها المال دورا ثانوياً فقط – بل حل محلها الوساطة وتجارة الجملة المالية الرأسمالية.

حدثت عملية تمايز مماثلة في ثاني المجالات الرئيسية لأعمال اليهود: أي الحرف اليدوية والصناعة والنقل. بينما تأرجحت أهمية الحرفيين اليدويين في الاقتصاد القومي، اشتدت المنافسة بينهم. عاش الكثير منهم في أكثر الظروف بؤسا.

لقد عانى الخياطون والحائكون والإسكافيون – جميعهم مثلوا العاملين بالحرف اليدوية– من صعاب جمة. وردت سجلات من الشتيتل بكرازنوبولي في مقاطعة موجيليف التابعة لروسيا البيضاء مفادها إمكان تقسيم الحرفيين اليدويين إلى ثلاث مجموعات:

كانت المجموعة الأولى تعمل حسب الطلب. وقد بقي قسم منها في المدينة لخدمة أهل المدينة، أما القسم الآخر فكان يرتحل بين القرى

---

[٦٧] بيرنارد د. فاينريب، التاريخ الاقتصادي الحديث لليهود في روسيا وبولندا. منذ التقسيم الأول لبولندا إلى رحيل ألكسندر الثاني (١٧٧٢-١٨٨١) (هيلدشليم- نيويورك، ١٩٧٢)، الطبعة الثانية، ص. ٥٦.

المحيطة ويبحث عن الزبائن هناك. عادة ما كان الخياطون والإسكافيون والنجارون والحدادون وصانعو الأواني القصديرية ومصلحو المواقد وصانعو الزجاج يعملون في منازل الزبائن. كانوا يجوبون القرى والضياع يعملون في مكان ما اليوم ثم بمكانٍ آخر في اليوم التالي ويعودون إلى ديارهم يوم "السبت". أحيانا، خاصة قبل العطلات المسيحية قبل عيد الفصح وعيد الميلاد كان يخرج الصناع بورشهم الكاملة من أجل إنجاز أعمال موسمية محددة. على وجه الخصوص، كان الحائكون والخياطون يفعلون هذا وكان الإسكافيون يقومون بهذا بشكل أقل. كانت المجموعة الثانية من الحرفيين اليدويين تعمل بدوامٍ جزئي فقط على أساس الطلبيات، لكنها غالبا ما كانت تعمل من أجل البيع بالأسواق الذي كانت على اتصال مباشر به. على سبيل المثال، كان الإسكافيون والسمكريون وصانعو القبعات يعرضون منتجاتهم للبيع في أكشاك بالأسواق أو في كبائن بالأسواق وفي السوق الأسبوعي بالمدينة نفسها وفي القرى القريبة. لم تكن للمجموعة الثانية من الحرفيين اليدويين أية علاقة مباشرة بالمستهلك. لقد فقدت هذه المجموعة أيضا استقلاليتها، وعوضا عن هذا عملت هذه المجموعة لصالح أصحاب الأعمال. ضمت هذه المجموعة بصفة رئيسية الإسكافيين الذين كانوا يصنعون أحذية رخيصة الثمن كان يطلق عليها اسم "أحذية مسيرة" للفلاحين الذين لا يشترطون معايير عالية. في الوقت المعاصر، بدأ الخياطون والحائكات والمطرزون وصانعو الجوارب وصانعو القبعات في انتهاج نفس الطريق الذي سار فيه الإسكافيون.[٦٨]

تمكن قسم من الحرفيين من العثور على وظائف في الصناعات المتوسعة وفوق كل شيء في صناعة النسيج التي تمركزت في مدينة

[٦٨] هيلمان، الأنظمة التعاونية اليهودية في روسيا (برلين، ١٩١١)، ص. ١٠١ بالكامل (على نسق ل. روشلن، ١٩٠٩).

لودز والمناطق المحيطة بها. لكن على ما يبدو كان العمال اليهود يتم توظيفهم بأعداد كبيرة من جانب اليهود في المصانع غير الميكنة أو الميكنة بصورة طفيفة. كان رجال الأعمال الألمان في مدينة لودز يفضلون جلب عمال متخصصين من ألمانيا. في هذه الحالة، كان الاحترام الصارم للقانون الديني لا يعمل لصالح العمال اليهود. انطلاقا من المخاوف من الميكنة، لم يكن رجال الأعمال مستعدين لإغلاق الماكينات يوم السبت. من الحقائق المتصلة بهذا الصدد أنه في الغالب كان اليهود يملكون مصانع أكبر من تلك المملوكة لغير اليهود غير أنه في الوقت ذاته كانت مصانعهم أقل ميكنة وبالتالي أقل تحديثا ونتيجة لذلك كانت قدراتها الإنتاجية أقل.

مرة أخرى، كانت هناك مجموعة صغيرة من أصحاب الأعمال اليهود الذين برزوا ضمن أهم الشخصيات في البلاد. كان الكثير منهم يواصل الدور التقليدي الذي كان يقوم به اليهود العظام بتوريد المؤن للجيش، هؤلاء الموردون الذين شكلوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر الأساس الذي قام عليه الارتقاء الاجتماعي لعدد من الأسر وكانوا على صلة وثيقة بتجارة اليهود ورأس المال المصرفي. بهذه الطريقة استطاعوا الوفاء بالاحتياجات الضخمة لرأس المال التي كان اليهود بحاجة إليها لتحقيق التقدم في عملية الاتجاه للتصنيع.

كان أصحاب الأعمال اليهود يكتسبون قوة خاصة حين يستطيعون مواصلة الأنشطة التقليدية. لقد توازى انخراط اليهود في صناعة النسيج- هنا يجب أن نأتي على ذكر أحد أهم رجال الأعمال في مدينة لودز ويدعى بوزنانسكي- مع التطور المستمر الذي شهدته تجارة الملابس اليهودية. أما عن صناعة السكر – التي نشط فيها أسرة إيبشتاين وكرونينبرج وغيرها من الأسر اليهودية من وارسو- فإن الأنشطة السابقة التي قام بها اليهود في الريف في هذا

المجال على سبيل المثال على أراضي النبلاء قد كفلت لهم مكانة جيدة. أما المجال الثالث، مجال النقل فقد ظهر مثلاً "ملوك السكة الحديد" بولياكوف وبلوخ بطبيعة الحال من تحت عباءة الدور اليهودي التقليدي في التجارة. في واقع الأمر، كانت مساعي رجال الصناعة والسماسرة اليهود لتحقيق التكامل بين المجالات الاقتصادية المزدهرة بطرق متباينة ذات صلة بتجربتهم التاريخية. لقد لعبوا دورا في تغيير مسار الأمور في الامبراطورية الروسية.

استمر سقوط عامة اليهود في هاوية الفقر بسرعة رهيبة. حاول الكثير من الحرفيين اليهود المفلسين كسب رزقهم من تجارة التجزئة رغم أن أفق النجاح لم تكن أفضل بكثير. لقد خسر المزيد من اليهود وظيفتهم الاقتصادية. ففي الكثير من المدن بلغت نسبة اليهود الذين لا يملكون وظائف ثابتة ٥٠% أو أكثر بحلول نهاية القرن. في النصف الثاني من تسعينيات القرن السابع عشر ارتفع عدد هؤلاء الذين كانوا بحاجة إلى المساعدات بمعدل الثلث تقريباً. لم يزد تأثير المنظمات الخيرية اليهودية عن قطرة في بحر حتى حين انخرط الأثرياء من اليهود من أمثال بوزنانسكي أو بلوخ الذين اعتنقوا أولا البروتستانتية ثم الكاثوليكية. حتى الهجرة لم تحقق أي تحسن ذي قيمة. لقد قام الحاخام الألماني عمانويل كاربلباخ بزيارة وارسو أثناء الحرب العالمية الأولى. وحين أرسل خطابا للوطن في الخامس من فبراير ١٩١٧، عبرً عن ذعره مما رأي قائلاً:

في الأيام القليلة الماضية قمت بزيارة الكثير من المدارس العليا للتوراة والتلمود حيث كان الأطفال والمدرسون – جميعهم دون رواتب– حفاة الأقدام وأنصاف عراة عملوا في غرف بلا مدفئة. صادفت في طريقي – حيث بلغت درجة الحرارة ٢٠ أو ٢١ درجة [مئوية تحت الصفر] في ظني رجلاً رث الثياب [واحد من بين آلاف الأشخاص] فاقتربت منه وأنا مغطى بالفراء والقفازات الفرو

وسألته: "ألا تشعر بالتجمد تماماً؟" فأجاب "ألا يشعر أنفك بالتجمد؟" فقلت: "ليس الآن" فرد بسرعة بديهة، "ليس لدى الفقير سوى لحمة أنفه."[٦٩]

يجب أيضا دراسة الدور الوسيط متعدد الأوجه لليهود ببولندا وروسيا في ظل خلفية الانقسام الاقتصادي والاجتماعي بين صفوف اليهود. في عام ١٩١٢ كتبت جمعية موسكو لرجال الصناعة مذكرة دعت فيها إلى رفع القيود المفروضة على اليهود: "في النظام الاقتصادي للبلاد، يؤدي اليهود وظيفة حلقة الوصل بين مستهلكي السلع ومنتجيها."[٧٠] ويتذكر إسحاق بابل في العشرينيات من القرن العشرين: "وثق اليهود عرى الربح بين الفلاح الروسي والأسياد البولنديين، بين الاستعماري التشيكي ورجل الصناعة في لودز."[٧١] هنا يوضح بابل أنه رغم كل التغيرات كان لا يزال هناك بقايا "نظام التداول الاقتصادي" التقليدي الذي يشمل رجال الأعمال والمصرفيين وتجار الجملة والتجزئة و"جوالي القرية" والباعة الجائلين من اليهود أو بالأحرى كان هذا التداول يستمر على أساس جديد. في كل من القطاعات الرأسمالية وقبل الرأسمالية للاقتصاد، قام اليهود بدور الوسيط بين الإنتاج والمبيعات بما فيها المعاملات المالية بين اليهود

---

[٦٩] ألكسندر كارلباخ، "حاخام ألماني يتجه شرقاً"، في الكتاب السنوي السادس لمعهد ليو بايك (١٩٦١)، ص. ٦٠- ١٢١، هنا ص. ١٠٨. تبين الخطابات بقوة الظروف التي أحاطت بيهود وارسو وتجربة مقابلة يهود شرق أوروبا.

[٧٠] إ. م. ديجور، اليهود في الاقتصاد الروسي، في اليهود الروس (١٨٦٠- ١٩١٧)، تحرير جيكوب فرومكين، جريجور أرونسون وأليكسيس جولدن فايسر (نيويورك- لندن، ١٩٦٦)، ص. ١٢٠- ١٤٣، هنا ص. ١٤٣.

[٧١] بابل ، الأعمال الكاملة، الجزء ألأول، ص. ٦٨.

بعضهم البعض، وبين اليهود وغير اليهود، وبين غير اليهود بعضهم البعض. غير أنهم لم يعد لديهم احتكار لهذا الدور.
المنافسة لإخراج المنافسين من السوق ومعاداة السامية لقد أدى التغير الذي اعترى دور الوسيط وفقدان احتكاراليهود لهذا الدور إلى تعريض اليهود لصراع اقتصادي ضار على النفوذ. في روسيا، ربط عدد كبير من طبقة النبلاء ورجال البلاط بين اليهود وخطر الرأسمالية والتحديث وحتى خطر الثورة. أصبح لعداء لسامية أيديولوجية تتسم بالعداء لكل من السامية والاشتراكية في الوقت ذاته بهدف تحقيق التماسك للنظام القائم بالفعل. في بولندا أسفرت "المسألة القومية" عن زيادة حدة التنافس من أجل الحصول على حصة في السوق. كثيرا ما نظرت الطبقة البرجوازية البولندية الصاعدة إلى اليهود كغرباء يقفون كعقبة كئود أمام أفضل الفرص المتاحة. في مدينة لودز كثيرا ما تم الخلط بين اليهود والألمان وكانت تحوم حول اليهود الشكوك بالتواطؤ مع القوة الاستعمارية الروسية، رغم أن الكثير من رجال الأعمال اليهود لم يفتقروا إلى حس الوطنية البولندي.

في بداية روايته العظيمة "العقار" يصف إسحاق باشيفيس سينجر كيف تم نفي الكونت جامبوليسكي إلى سيبريا نتيجة لاشتراكه في ثورة عام ١٨٦٣ وتم نقل ملكية أراضيه إلى أمير روسي. طلب تاجر الحبوب اليهودي كالمان جاكوبي- الذي سبقت له التجارة مع الثوار- من الإقطاعي الجديد تأجير الأرض ونجح في استئجارها في النهاية. "لقد أثار غضب فلاحي جامبو هذا اليهودي الكافر الذي استطاع باسم مستعمر غريب أن يتسيد أرضا بولندية." كانت أنشطة كالمان التجارية ناجحة فقد فتح حانة وحانوت بشكل غير شرعي غير أن السلطات الروسية تذرعت بالصبر والتسامح معه. أصبح الفلاحون- الذي كان يدفع مقابل

فائض منتجاتهم أسعاراً جيدة- زبائنه الرئيسيين. بعد ذلك قام كالمان بفتح محجر للحجر الجيري وحظي بنصيب في السكة الحديد – التي تديرها الحكومة الروسية – وينظمها "والينبرج أحد أقطاب وارسو ... وهو يهودي اعتنق المذهب الكاثوليكي " هنا من الواضح أن سينجر اتخذ من "ملك السكة الحديدية" جان جوتليب بلوخ (ارجع لما سبق) مثالا له [٧٢] في ظل الظروف المتغيرة، أهب النجاح الاقتصادي للطبقة العليا اليهودية المناخ المناهض لليهودية. علاوة على ذلك، لم يتسم المصرفيون وتجّار الجملة اليهود بصفات غير ملموسة وواضحة كتلك التي كان يتميز بها يهود القرية الذين وثق بهم الفلاحون أو كرهوهم بوصفهم اليد اليمنى للسيد الإقطاعي. في ظل الإنتاج الرأسمالي وعملية التوزيع التي كان من الصعب إدراكها، كان من الممكن في كل من بولندا وروسيا تقديم اليهود ككبش فداء تقليدي في أوقات الأزمات بوصفهم مسئولين عن الصعاب الاقتصادية أو العواقب السيئة للتوجه نحو التصنيع. هذه انطلاقة هامة لفهم العلاقة بين التوجه نحو الصناعة والعداء للسامية.

لقد قدم الشاعر بولسلو بروس (١٨٤٧– ١٩١٢) وصفاً للمناخ السائد بعد ثورة عام ١٨٦٣ الفاشلة الذي أراد فيه البولنديون أن يحظوا ب"سيادة داخلية" بعدٍ الازدهار الاقتصادي. في نفس الوقت، لم يكن بروس نفسه خلوا من المواقف المناهضة لليهود لأنه خشي من أن اليهود الذين لم يتصرفوا كما أراد هو وغيره من "الإيجابيين" كان من الممكن أن يزعزعوا مسار التنمية الاقتصادية. في روايته "الدمية" التي تدور أحداثها في مدينة وارسو في الثمانينيات من القرن التاسع عشر يقول بروس على لسان إحدى شخصيات الرواية: "اليهود، أقول، اليهود ... لقد أبقوا على كل شيء مقيد

[٧٢] أيزاك باشيفيس سينجر، العقار (ميونيخ، ١٩٨١)، ص. ١١-١٦.

وتأكدوا من عدم اعتراض أي وكوليسكي (تاجر بولندي صاعد) لطريقهم ما دام ليس يهوديا ولا حتى ميك (يهودي متنصر)." ثم يقوم هذا الوكوليسكي بتعيين يهودي يدعى شلانجباوم كمندوب للمبيعات لم يكن يستطع إيجاد وظيفة بشركة يهودية بسبب الفائض في العمالة بالسوق. في ظل جو من العداء المتزايد للسامية التي تبرز بطرق عديدة، في النهاية يبيع الوكوليسكي شركته له لأغراض شخصية. يأتي رد فعل صديقه يقوله: "من المريع كيف يخرجنا اليهود ... في يوم ما سيكون هناك أعمالٍ عنف أخرى بسبب اليهود." يسأل يهودي مندمج، يعمل طبيبا، الووكوليسكي أن يظل ممسكا بعنان الأمور بينما لازال يستغل قدرات اليهود: "شعب عبقري اليهود لكن بالهم من أوغاد ... فكلهم محتالون سيئو الطالع، بيد أنني لابد وأن أعترف بعبقريتهم ولا يمكنني إنكار أنني أتعاطف معهم. أشعر أن يهودي صغير قذر أفضل من رجل بالغ من الإقطاعيين البروسيين ..." ولكن

العرق والوضع المشترك يربط بيننا غير أننا تقسمنا آراؤنا. نحن [اليهود المتعلمين والمندمجين- هـ. هـ.] نملك المعرفة؛ لديهم التلمود ولدينا الفهم، لديهم المكر ... من ثمّ فإنه من مصلحة الحضارة أن يبقى بين أيدينا تقرير في أي اتجاه نسلك. يمكنهم فقط أن يلوثوا العالم لا أن يسيروه بقفطانهم وبصلهم.

لاحقاً، قام الصديق سابق الذكر مرة أخرى بتسجيل المناخ العام السائد قائلاً:

برحيلي أخبرني [بائع سابق في تجارة وكوليسكي- هـ.هـ.] أنه قريباً لن يكون هنا سوى يهود وسيتم تهويد الباقي ... إن المناخ السائد يضطرم ضد اليهود. كل ما يحتاج إليه هو الشائعات بأن

اليهود يقومون بخطف أطفال مسيحيين ويقتلونهم من أجل عمل خبز الماتسو [خبز غير مخمر من أجل عيد الفصح اليهودي- هـ.هـ.].[٧٣]

الهاسكالاة: التنوير اليهودي

في أعقاب ظهور الفلاسفة اليهود الألمان حول موسى مندلسون، حين غزت أفكار التنوير أوروبا الشرقية، لم يكن لهذه الأفكار أثر يذكر على السكان اليهود هناك. وإن كان "البرلينيون" قد تمكنوا من بناء "أورشليم التنوير" الجديدة في مدينة فيلينوس فقد ظلوا غرباء من منظور الأسلوب التقليدي للحياة ليهود شرق أوروربا [أوستيودن]. لم يكن لغالبية الأوست يودن أية صلة بالنصوص المكتوبة باللغة العبرية لأنها لم تكن لغتهم. طالب رجال التنوير، المسكيليم- الذين يمثلهم إسحاق بير ليفينسون (١٧٨٨- ١٨٦٠) المعروف باسم "مندلسون اليهود الروس"[٧٤] - أن يندمج اليهود بشكل تام في المجتمع القائم وأن يشاركوا في النظام التعليمي العلماني وأن يغيروا أساليب حياتهم التقليدية وبهذه الطريقة يتوصلون إلى هوية يهودية جديدة؛ لم يكن هذا المطلب مقنعا بشكل خاص بالنظر إلى الظروف المحيطة. كان يبدو أن الحسيدية وحتى الأرثوذوكسية لديهما إجابات أفضل في هذا الصدد.

رغم ذلك، أصبح تغير القناعة بادياً للعيان بشكل تدريجي. كان للمدرسة الحاخامية التي افتتحت في وارسو في ١٨٢٦ والمعاهد اللاهوتية الحاخامية في مدينتي فيلينوس وزيتومير في ١٨٤٧ لها أثر

---

[٧٣] بوليسلاف بروس، الدمى (برلين، ١٩٥٤)، ص. ٨٧، ٦٥٨، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٦، ٨٣٤ بالكامل.

[٧٤] إرجع إلى إينجه بلانك، الهسكلاه والتحرير. طبقة المفكرين الروسية اليهودية و"المسألة اليهودية" على أعتاب "الإصلاحات العظمى"]، في اليهود في وسط وشرق أوروبا. منذ التحرير وحتى الحرب العالمية الأولى، تحرير جوتهولد رودي (ماربورج، ١٩٨٩)، ص. ١٩٧- ٢٣١، هنا ص. ٢١٣.

خاص كنوع من بديل للمدارس الثانوية وكثقل موازٍ للياشيفوت التقليدي (أكاديميات المعرفة التلمودية) . لقد أسفر الصراع الطويل بين الحسيديين وأتباع الهاسكالاة عن ظهور شكل مختلف من أشكال يهود شرق أوروبا والذي دافع في ذلك الوقت بشكل واعٍ، وإن كان من منطلق آراء مختلفة، عن قومية يهودية شرق أوروبية مستقلة. قرابة منتصف القرن التاسع عشر أدرك جيل جديد من المفكرين اليهود أن التنوير والتحرر لا يمكن فرضهما بالقوة "من أعلى" أو "من الخارج" وإنما ينبغي أن ينبثقا عن الهوية التاريخية والثقافية للشعب. تمثلت إحدى نتائج هذا الإدراك في بدء الناس الكتابة باللغة اليديشية وازدهار الأدب اليديشي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وصل هذا الازدهار إلى أوجه على يد الشعراء شوليم أليشيم (١٨٥٩– ١٩١٦) ومندل مويخر سفوريم (١٨٣٦– ١٩١٧) وإسحاق ليب بيريز (١٨٥٢– ١٩١٥) وفيما بعد شالوم آش (١٨٨١– ١٩٥٧) . من مظاهر إحياء الثقافة اليديشية إصدار مجموعات من الأغاني والنوادر والنكات اليديشية إضافة إلى الموسيقى والعادات والممارسات اليهودية. قامت الجمعية الإثنوجرافية التاريخية اليهودية الروسية التي تأسست في سان بطرسبرج عام ١٩٠٨ بالتوسع في دراسة الثقافة الشعبية اليديشية ووضع قواعد لها . يرجع اسم هذه الجمعية إلى البارون هوراس جينزبرج (نافتالي هيرتز جينزبرج، ١٨٣٣– ١٩٠٩) وهو أحد المصرفيين وفاعلي الخير ومن الشخصيات القيادية المحنكة بالجماعة اليهودية في سان بطرسبرج. كانت الدراسات الميدانية التي أجريت في منطقة الاستيطان على يد س. أناسكي (يكتب أيضاً أن سكي– شلويمي زينفيل رابوبورت، ١٨٦٣– ١٩٢٠) مؤلف المسرحية اليديشية الشهيرة "**Der dibek**" (١٩١٩؛ ترجمت

تحت عنوان "الدبباك")[٧٥] ذات أهمية كبرى. لم يتوقف استهداف إقحام اليهود في الثقافة الإنجيلية–العبرية وكذلك في الثقافة القومية البولندية والروسية اي "التثاقف المزدوج" وإنما اتخذ هذا الهدف مكانة مختلفة. لقد نشأ معظم رجال التنوير الجدد في الطبقة الاجتماعية الفقيرة وقد عاشوا خلال الصدامات بين الحسيدية والتنوير وفي خضم الصراعات التي نشأت عن فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على اليهود وغيرها من القوانين الصارمة في عهد القيصر نيقولاس الأول. علاوة على ذلك، تعرف رجال التنوير الجدد ايضا على الجدل الثائر في الدوائر الواقعية–النقدية الروسية في هذا الوقت حيث قامت بالهجوم العنيف على الحالة الراهنة للمجتمع: هم أنفسهم كانوا ينتمون لما يطلق عليهم "الرجال غير الضروريين" وهو مفهوم رئيسي كان موضعا للنقاشات والمساعي الأدبية في ذلك الوقت ويقصد به الرجال الذين كانوا دخلاء اجتماعيين وكانت لديهم فرصة ضئيلة للتقدم الاجتماعي. إبان العصر الليبرالي في عهد ألكسندر الثاني، تمكنت هذه الحركة في البداية من أن تتطور. كانت مدينة أوديسا هي مركز هذه الحركة. ظهرت أول صحيفة يهودية ناطقة بالروسية هنا لفترة وجيزة. شهدت مدينة وارسو وغيرها من المدن تطورات مماثلة. بعد إخضاعها للمزيد من القيود بعد الثورة البولندية في عام ١٨٦٣، أصبح مصير الحركة التنويرية اليهودية الجديدة في شكلها آنذاك بعد عام ١٨٨١– عام اغتيال ألكسندر– هو الإخفاق التام. رغم هذا الإخفاق، فقد أدت الهاسكالاة إلى المزيد من التطورات. لقد أصبح أتباعها جزءا من مختلف المجموعات اليهودية الثورية الاشتراكية التحررية الصهيونية القومية. كان يربط بين

[٧٥] ارجع إلى الحياة في شتيتل روسي. على خطى أنسكي. المجموعة اليهودية لمتحف الدولة للأعراق في بطرسبرج، كتالوج لأحد الشتيتلات (كولونيا، فرانكفورت ، ١٩٩٣).

كل هذه الجماعات أمر واحد ألا وهو الوعي بوجود قومية يهودية شرق أوروبية.

الاندماج والتثاقف

لم يكن رد فعل اليهود واحداً تجاه التغير الاقتصادي الاجتماعي الجذري والشكل الجديد الذي اتخذه العداء ضد السامية الذي كان يحقق انتشارا. رأت مجموعة صغيرة – بالاشتراك مع غالبية اليهود الغربيين– فرصة للعثورعلى مخرج من ظروف حياتهم البائسة والاضطهاد المطرد من خلال الاندماج أو التثاقف والتخلي عن ثقافتهم الخاصة عبر تحالفها مع ثقافة أخرى أو مواجهة الثقافة المغايرة على أمل التوصل إلى ثقافة جديدة تجمع بينهما. في هذا الصدد، تكون المؤشرات الأولى لإصلاح الممارسات الدينية في المعبد اليهودي وفي الحياة اليومية ذات علاقة. كان اليهود المقصودون بالإصلاح هم هؤلاء الذين حققوا نجاحا اقتصاديا أو الذين تأثروا بأفكار حركة التنوير. لقد انطوت الأفكارعلى شعور بالتفاؤل أنه على المدى الطويل يمكن تحقيق الاندماج التام في المجتمع البولندي أو الروسي. كان لابد وأن يسبق هذا التحالف الثقافي بطبيعة الحال القضاء على التمييز ضد اليهود. سعى هذا الرأي إلى تحقيق التكامل، بينما أصرعلى الحفاظ على الهوية اليهودية.

تساعد بيانات التعداد حول اللغة الأم والجنسية على توضيح بعض من هذا الوعي بأهمية الاندماج. فأثناء تعداد أجري في وارسو عام ١٨٨٢ ، حاولت الجماعة اليهودية – تحت زعامة دعاة الاندماج وفقاً لمعتقداتهم – نتيجة لأعمال العنف التي حدثت قبيل هذا التعداد أن تحض اليهود على إعلان انتمائهم للجنسية البولندية. وقد كللت هذه المحاولات بالنجاح إذ لم يعلن سوى ٢.٧ % من سكان وارسو أنهم يتمتعون بالجنسية اليهودية. اختلفت الأمور كثيرا عام ١٨٩٧. هذه المرة طرح سؤال حول اللغة الأم للشخص: فأجاب

٢٨.٣% من سكان وارسو أنها اللغة اليديشية مما يشكل ٨٤% من إجمالي عدد اليهود بينما أجاب ١٤% بأن لغتهم الأم هي اللغة البولندية. يمكن للمرء – مع توخي الحذر– أن يعتبر هذا إشارة لرغبة اليهود في الاندماج. علاوة على ذلك بين ١٤% هذه كان هناك من يقطعون صلاتهم بالجماعة الدينية وينضمون للحركات "العلمانية"– الاشتراكية أو الصهيونية. لازال الكثيرون منهم يشعرون أنهم يهود وإن كانوا تحولوا بعيدا عن معتقدهم الديني، وهو ميل اشتد بعد نهاية القرن. أما النسبة المتبقية من يهود وارسو ٢% فتوضح أيضا أن القومية واللغة الأم كانت متغيرات مستقلة: لقد كان معظم الذين أتوا إلى مملكة بولندا عبر ليتوانيا من روسيا من اللاتفيين بسبب الكارثة الاجتماعية والاقتصادية التي لحقت بهم أو كانوا هاربين من أعمال العنف التي جرت ضدهم أو كانوا يهوداً طردوا من مناطق خارج منطقة الاستيطان فاعتبروا أنفسهم يهودا وليسوا روسا.

في المدن الكبرى مثل مدينة وارسو ولودز حيث تتشابه الشخوص، كانت الجهود المبذولة لقطع الصلات مع الجماعة الدينية أقوى بطبيعة الحال منها في المدن الأصغر. في مملكة بولندا ككل لم يقر سوى ٣.٥% من اليهود بأن البولندية هي لغتهم الأم.

يهود رابطة العنق ويهود القفطان

ارتحل اليهود المندمجون بعيدا عن عالمهم التقليدي وتخلوا إلى حد ما حتى عن الديانة اليهودية. ليسوا جميعهم ولكن الكثير منهم– ممن يوصفون في الأدب أحيانا بأنهم جويبش بيدن، "اليهود ذوو رابطة العنق"– ارتأوا أن اليديشي بيدن أو من يطلق عليهم اسم "يهود القفطان" كانوا حجر عثرة أمام اعتلائهم سلم النجاح.[٧٦] في ذلك الوقت تردد في بولندا وروسيا ما تردد من قبل عن اليهود المهاجرين

[٧٦] ارجع إلى فيرسونكينا فيلت [العالم الضائع]، تحرير جواشيم ريدل (فيينا، ١٩٨٤)، ص. ٧٧- ٩٠.

إلى الغرب: اليهودي القذر،غير المتحضر، صاحب الحرفة اليدوية، الخانع في قفطانه المهلهل الرث بسوالفه المدلاة في التواء حتى تصل إلى كتفيه، و تفوح منه روائح الثوم والبصل المنفرة، المتسول والنشال والقواد، الواقف في طريق الاندماج والمسئول حتى عن العداء للسامية. هذا الاشمئزاز وصل إلى حد الكراهية لأصل اليهودي. كل هؤلاء اليهود "الأوروبيون" بروحهم المتضائلة وأفقهم الضيق ... لا يمكنهم التحرر من فكرة أننا أقاربهم الفقراء حتى حين نكون أغنى منهم! هذا الافتراض الداخلي الذي يستشعرونه تجاه كل شيء الذي يأتي من الشرق أصابني في الصميم ... مهما كان المكان الذي جئنا منه فما نحن سوى "أوست يودن" بالنسبة لهم!"[٧٧]

ازداد الوضع تعقيدا لا فقط لأن "يهود ربطة العنق" نظروا بازدراء "ليهود القفطان" بل لأن يهود شرق أوروبا كانت لديهم مشاكلهم اليهودية الشرق أوروبية الخاصة بهم. مثلما قابل الكثير من يهود غرب أوروبا المملوئين بالرعب يهود شرق أوروبا المهاجرين إليهم بالرفض، نظر عدد من اليهود البولنديين –خاصة الساعين للاندماج – إلى اليهود المهاجرين من روسيا بشيء من عدم الثقة وحتى النفور. هؤلاء اليهود المهاجرون الذي وصل إجمالي عددهم إلى حوالي ٢٥٠.٠٠٠ شخص تحدثوا بلهجة أخرى من اللغة اليديشية ولم يستخدموا اللغة البولندية خارج الجماعة اليهودية بل تحدثوا الروسية. إلى حد كبير، كان اليهود المهاجرون من روسيا منعزلين عما يحيط بهم. بدا كل من مظهرهم الخارجي وسلوكهم متماشيا مع جميع التحيزات ضدهم. سارع كل من اليهود وغير اليهود في بولندا إلى إلصاق مسئولية إخفاق التعايش بين البولنديين واليهود وتزايد

---

٧٧ بانايت استراتي، عائلة بيرلموتر، في قضية العمل، الجزء الثامن، تحرير هاينريش شتيلر (فرانكفورت ، ١٩٨٨)، ص. ١٦٥.

موجة العداء للسامية بالليتفاك. ترك الناس أيضاً لأنفسهم العنان للتنفيث عن كراهيتهم للروس في شخص اليهود.

كان رأي جدي أن العلاقات بين القسم المسيحي من المجتمع البولندي واليهود البولنديين كانت قد أصبحت أكثر تناغماً منذ زمن طويل. لقد اندمج جزء من اليهود البولنديين في المجتمع، غير أنه حتى اليهود الذين لم يندمجوا جعلوا انفسهم في وضع يمكن من خلاله تحقيق التعايش التام مع البولنديين. دمر هذا التعايش – وفقا لجدي– الليتفاك الذين لم يتحرروا من "وطنيتهم المزدوجة" حتى بإذلالهم من جانب إدارة القيصر... لم يكن جدي الوحيد الذي تبنى هذا الرأي بل شاركه فيه الكثير من اليهود البولنديين.[٧٨]

غير أنه يجب عدم إغفال حقيقة أن الليتفاك كانوا أكثر اندماجاً في المجتمع البولندي اليهودي مما أقر به الكثير من معاصريهم. كما أنهم أسسوا منظمات فعالة. إضافة إلى ذلك، كان هناك في وقت لاحق الكثير من المؤيدين للصهيونية بينهم.

مثال:

اليهود في وارسو ولودز

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت وارسو ثم من بعدها لودز مراكز جذب لليهود الذين كانوا يهاجرون من الريف تحت وطأة الضغوط التي تمارسها عليهم السلطات أو لأن الوضع الاقتصادي لم يترك لهم خيارا آخر بالفعل. ببدء التوجه نحو الصناعة، ازدادت المدن الكبرى جاذبية في أعين كل من اليهود المعدمين والفلاحين سعيا وراء الرزق.

لقد اشتملت وارسو، عاصمة المملكة الثرية بتقاليدها وأكبر مدينة في بولندا (لا فقط في منطقة التقسيم الروسية)، على

---

[٧٨] ميكال ستيرزيمسكي، المحادثة التي لم تكتمل. مذكرات (ليبزيج، ١٩٨٥)، ص. ٨٦.

السلطات الرئيسية في البلاد وأهم المؤسسات الثقافية والكثير من الصناعات الخدمية وخدمات النقل والخدمات الاقتصادية. نتيجة لذلك، كانت هناك فرصة جيدة للعثور على وظيفة هناك بأجر مرتفع. ارتفع إجمالي عدد السكان من حوالي ٢٢٣.٠٠٠ عام ١٨٦٤ إلى ٨٨٤.٠٠٠ عام ١٩١٤ وارتفع عدد اليهود من ٧٣.٠٠٠ إلى ٣٣٧.٠٠٠ وارتفعت نسبتهم بالنسبة إلى إجمالي السكان من ٣٣% إلى ٣٨%. حدث الارتفاع الرئيسي في عدد اليهود بعد عام ١٨٩٠. استمر هذا التزايد السريع في عدد السكان اليهود بالنسبة لإجمالي عدد السكان في إثارة المخاوف من أن اليهود "سيغرقون" المدينة بالتأثيرات الأجنبية كما أثار مشاعر العداء للسامية. من العوامل التي أسهمت في ذلك أن الزيادة في عدد اليهود لم ترجع فقط للهجرة، فهناك مزاعم أن معدلات المواليد لدي اليهود كانت أعلى منها عند المسيحيين. لذا، فعلى المدى الطويل كان من الحتمي أن يتقلص عدد المسيحيين.

يمكن أن يؤيد هذا الرأي التوجهات التي ذاعت في الماضي. كان يقال ان اليهود في المتوسط يتزوجون في سن مبكرة عن المسيحيين لأسباب دينية، وبذا ينجبون عددا أكبر من الأطفال. بيد أنه إن تأمل المرء الحقائق عن كثب، يجد أن هذا لم يعد الحال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. رغم أنه لا يمكن الاعتماد على أساس إحصائي في هذا الصدد، يمكننا القول بأن عدد الزيجات في سن مبكر انخفض وأن عادات الزواج اليهودية والمسيحية بدأت في التقارب. يمكن تفسير حقيقة ارتفاع معدل الإنجاب عند اليهود عن المسيحيين بأن عدد الزيجات بين اليهود كان نسبيا أكبر منه بين الكاثوليكين. علاوة على ذلك، كان التركيب السني للجماعة اليهودية أصغر منه عند الكاثوليك مما أدى إلى زيادة عدد المواليد. أخيرا يبدو أن ارتفاع عدد الأبناء يمكن أن يعزى-

فوق كل الاعتبارات الأخرى- إلى انخفاض معدلات الوفيات بين الأطفال اليهود. يبدو أن مستوى الرعاية ومعايير النظافة الشخصية والأوضاع الصحية كانت أعلى عند اليهود منها بين المسيحيين. إضافة إلى ذلك كان عدد أطفال السفاح عند اليهود أقل منه عند المسيحيين والأطفال غير الشرعيين كانوا يتوفون كثيرا على وجه الخصوص.

في لودز يمكن ملاحظة عملية مماثلة في مناح كثيرة منها رغم تباين الظروف بشكل كبير. في هذه المدينة المصنع التي تأسست بقرار حكومي عام ١٨٢٠ كانت صناعة النسيج هي السائدة. حيث لم يكن هناك في الحقيقة أية مسئوليات إدارية مركزية، لم تكن لودز إلى هذا الوقت عاصمة إقليمية – كانت الوظائف الشاغرة والخدمات والثقافة المتاحة أكثر تجانسا بشكل ملحوظ منها في وارسو. جعل التوسع السريع لصناعة النسيج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من لودز أكبر تجمع للعمال في بولندا. تعقد الهيكل السكاني من بسبب أن الألمان من عمال وحرفيين ورجال أعمال تواجدوا هنا بأعداد غفيرة رغم تقلص عددهم بعد أن كانوا يمثلون ثلاثة أرباع السكان بعد إنشاء المصانع مباشرة إلى ١٠% فقط من إجمالي السكان بعد نهاية القرن. لا عجب - بالنظر إلى طبيعة المدينة- أن سكان مدينة لودز تزايدوا بصفة أسرع من سكان وارسو. فقد ارتفع عدد السكان من أقل من ٤٠.٠٠٠ في ستينيات القرن التاسع عشر إلى حوالي ٤٨٠.٠٠٠ بحلول بداية الحرب العالمية الأولى. ارتفعت نسبة اليهود أثناء هذه الفترة من ١٩.٥% إلى ٣٦%. غير أن هذه الأرقام تشير فقط إلى أصحاب الأصل اليهودي. فقط ٣٣% من السكان اعتنقوا الديانة اليهودية. من ثم يمكننا استنتاج أن بعض اليهود اعتنقوا البروتستانتية – الأمر الذي قربهم من الألمان في لودز.

نبوعاً من رغبتهم في الاندماج الكامل في المجتمع البولندي تحول الكثير منهم لاحقاً إلى الكاثوليكية.

بينما تشابه الهيكل الديموجرافي لكلتا المدينتين، أشارت النسبة الأعلى لليهود المندمجين إلى اختلاف جوهري في الهيكل الاجتماعي والوظيفي. في وارسو قرابة نهاية القرن التاسع عشر عمل أغلب اليهود أو حوالي ٤٠% منهم بالتجارة ونظام الائتمان الذي تسيدوه رغم أن هذا الأمر قل تدريجيا. كان ثاني أهم مجالات العمل لليهود الصناعة والحرف اليدوية التي كان يشكل اليهود ٣٠% من العاملين بها، غير أن إسهام اليهود في هذا القطاع شهد ارتفاعاً ملحوظاً. كانت جميع القطاعات الأخرى في حقيقة الأمر بلا أهمية كبرى. في المجمل، جاءت الظروف في وارسو كرد فعل على التطورات العامة التي شهدها اليهود في بولندا الروسية. هنا أيضاً كان من الممكن ملاحظة الانقسام المتزايد بين القلة من الأثرياء والكثيرين من الفقراء الذين تمركزوا في مجالات تجارة التجزئة والبيع بالتجوال والمهن الصغيرة. من المدهش أنه كان هناك عددٌ قليل من أصحاب الأعمال الصناعية من اليهود الأغنياء – غالباً المندمجين– غير أن معظم رجال الصناعة هؤلاء كانوا يملكون مشاريع صغيرة غالباً ما استعملت عمالاً يهود.

كان هذا في البداية أيضاً ملمحاً من ملامح الوضع بمدينة لودز. بوجه عام، كانت المصانع المتمتعة بأعلى مستويات الميكنة ملكاً لغير اليهود. في صناعة القطن التي كانت تتطور إلى صناعة حديثة واسعة النطاق، انخفض عدد العاملين من اليهود عنه في الفروع "الأقدم" لصناعة النسيج. بصفة عامة، وجد اليهود عملاً في المؤسسات غير الميكنة أو الميكنة بشكل بسيط حيث يمكنهم أداء فروضهم الدينية. علاوة على ذلك، غالباً ما كان يتعمد رجال

الصناعة اليهود المندمجون أو النازعون إلى الاندماج توظيف عدد قليل من اليهود.

يقول إسرائيل جوشوا سينجر، الأخ الأكبر لإسحاق سينجر، في وصف مشروع يهودي كبيرإلى حد ما رفض صاحبه التطور مع العصر وتحويله إلى العمل بالطاقة البخارية:

كانت قعقعة أجهزة النول تترد أصداؤها في الفناء... في ليلة السبت كان العمال يعملون لفترات أطول من المعتاد، لأنه يتعين التعويض عن العطلة التي لا ينجز فيها عمل. في ضوء الشموع المصنوعة من الدهن التي كانت توضع على الأنوال، أنتج العمال الخمسون الأشداء أغطية للرأس ... كان مصنعه يهودي العمالة تماما. على كل عضادة باب تجد ميزوزا [رقية صغيرة مطوية أو ملفوفة منقوش عليها آيات من الكتاب المقدس- هـ.هـ.] وبين كرات الخيوط الصوفية والصناديق في مخزنه كانت لديه مقرأة قائمة بجانب شمعدان معدني كي يستطيع العمال لديه تلاوة صلوات العصر والمساء دون ترك المصنع. في الشتاء حين كانوا يعملون قبل ارتفاع نجم الصباح كانوا أيضا يقيمون صلاة الصبح هناك.

تأكد تشيم ألتر من أنهم يلتزمون بجميع شرائع اليهودية. حتى حين يكون الحر قائظا، لم يجرؤ أي شاب يهودي أن يجلس على النول عاري الرأس – حتى وإن استخدم كيسا ورقيا لتغطية رأسه. كان شال الرأس إجباريا وتأكد تشيم ألتر من أن العمال الشباب لم يشذبوا لحاهم أو يرتدوا معاطف مدنية بل القفطان التقليدي.

تبرع تشيم ألتر بالمال لمعبد بالوتر اليهودي للنساجين الذي أطلق عليه اسم "حب الأصدقاء" وكان يتردد على المصانع وساحات الأخشاب ومخازن الفحم. حتى أنه أبدى غضبه على أحد المعلمين لتدريسه العمال عصر السبت. في الصيف كان يأخذهم في جولة بين "أقوال الأسلاف" وفي الشتاء فصول من "سفر المزامير". كان رجلاً

متعلماً واسع المعرفة في كل شيء يمكن للمرء أن يتوقعه في العالم الآخر. كان يلقى محاضرات حول الحمق الإنساني و خيلاء البشر وحوله عمال النسيج المنهكون.[٧٩]

حتى الحرب العالمية الأولى، كانت غالبية المصانع اليهودية في كل من وارسو ولودز قديمة وصغيرة نسبياً أو منظمة على أساس العمالة اليدوية. كان القليل منها مؤسسات كبرى على مستوى عال من الميكنة.

تنوع الهيكل الداخلي للمشروع اليهودي (بمعناه الأوسع) في كلتا المدينتين. في حوالي عام ١٩٠٠، ربما ظلت نسبة اليهود في هذه الجماعة الاجتماعية ثابتة. للوهلة الأولى تكون هذه هي الحال حين يميز المرء بين الصناعة والتجارة: في الاحصاءات تتراوح الأرقام المسجلة ما بين ٣٠% و٤٠% بالترتيب. حيث أنه في لودز انخرط بعض الألمان – ٢٣% من رجال الصناعة– من اليهود الذين اندمجوا في المجتمع الذين لازالوا ينظر إليهم كيهود في إقامة مشاريع صناعية هنا اكثر منها في وارسو.

اندرج الكثير من هؤلاء اليهود المندمجين تحت طبقة تدعى لودزهيرمينش ["رجال لودز"] الذين وفقا للأراء المعاصرة كانوا أصحاب أعمال ماكرين، رفض المجتمع الاعتراف بنجاحهم رغم أنه في العموم كان هذا الرفض موجها لأنشطتهم الشيطانية التي غالبا ما تفتقر إلى الرحمة. ظهر هذا النوع من رجال الصناعة إلى حيز الوجود من خلال التوسع المحموم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرع واحد من فروع الإقتصاد والمنافسة الضارية بين الألمان والبولنديين واليهود– وأيضا بين أعضاء كل من هذه الجماعات بعضهم البعض. لم يكن هذا ممكنا في وارسو مع التنوع والتمايز اليهودي

[٧٩] إسرائيل جوشوا سينجر، الأخوة الأشكيناز (ميونيخ- فيينا، ١٩٨٦)، ص. ٥٩ بالكامل.

الثري. ظهر أكثر اليهود الناجحين اقتصادياً واجتماعياً بين الأشخاص الأكثر ثراءً في المجتمع. على الجانب الآخر، تشبث عامة اليهود الفقراء بالمذهب الأرثوذوكسي – غالبا بالحسيدية. حتى حينما كان بعض رجال الأعمال يتحولون إلى الديانة المسيحية، كانوا يشعرون بالارتباط بعامة اليهود بسبب التقاليد الراسخة. على سبيل المثال، أصبح بلوخ منخرطا بشكل كبير في عدد من التحقيقات والمذكرات ومشاريع أخرى من أجل تحسين الوضع الاقتصادي لليهود كما قام بوزنانسكي بوصفه رئيسا للجمعية الخيرية اليهودية في لودز وغيرها من المنظمات بالكثير من أعمال الخير لصالح الفقراء.[٨٠] كانت الأعمال الخيرية ضرورية للغاية ولكنها لم تقم سوى بتخفيف وطأة البؤس. شكل اليهود حوالي ٩٠% من بائعي وارسو وتزايد عدد اللوقتمينشين الذين لم تكن لهم أية وظيفة اقتصادية تزايدا مطردا. توضح ظروف السكن المستوى المعيشي المنخفض بشكل كبير. رغم أنه في ذلك الوقت لم تعد توجد هناك أية جيتوهات واضحة المعالم، عاش اليهود في كل من وارسو ولودز في نفس الجزء من المدينة. بطبيعة الحال، حدث هذا الأمر وفقا للتقاليد اليهودية. وحدهم يهود وارسو المندمجين انتقلوا إلى الشوارع الراقية التي كانت لاتزال "خالية" من اليهود في النصف الأول من القرن التاسع عشر. في عام ١٨٦٢ رفعت هذه القيود ولكن حتى في عام ١٩٠٠ هناك تشتمل وثائق في أرشيف ولاية وارسو على تفاصيل جمة حول إقامة اليهود في تلك الشوارع. بصفة عامة، سعى اليهود المهاجرون إلى

---

[٨٠] بنهاية القرن التاسع عشر، تأسست مدافن يهودية جديدة في مدينة لودز بمساعدة إسرائيل بوزنانسكي الذي دفن هناك في ١٩٠٢ وتم تشييد ضريح مهيب وضخم لتخليد ذكراه. ارجع إلى المدافن اليهودية في لودز، أقدم مدافن يهودية بأوروبا، تحرير موتسيم ستوكي و. لودزي (لودز، ١٩٨٨).

الإقامة في مناطق وجدوا بها سكاناً يدينون باليهودية. ربما اثر في وجهتهم أيضا روابط تتعلق بالأسرة والموطن الأصلي. بهذه الطريقة، في عام ١٩١٠ تمركز حوالي نصف السكان اليهود ١٥٠.٠٠٠ نسمة في الجزء الشمالي الغربي لمدينة وارسو. في وارسو شكل اليهود حوالي ربع السكان في المدينة وفي المنطقة الرابعة ألفوا أكثر من ٩٠% من السكان.

كان شارع نيلوكي المركزالتجاري بوارسو. حين قام ألفريد ديبلين بزيارة المدينة عام ١٩٢٤ لاحظ ما يلي:

يشق شارع نيلوكي شمال غرب وارسو مثله في ذلك مثل شارع مارشال وضاحية كراكو. يعد شارع نيلوكي الواسع الشريان الرئيسي للقسم اليهودي بالمدينة. يتفرع منه على اليمين واليسار شوارع طويلة ومنها تتفرع شوارع وحوار أخرى. ويزخر كل مكان بالتأكيد باليهود. تهدر السيارات بشارع نيلوكي . واجهات مبانيه تشبه إلى حد كبير بقية مباني وارسو؛ منهارة وقذرة. تظهر الساحات في كل بناء. دخلتُ في إحداها كانت مربعة مثل سوق مليء بأشخاص يثيرون الجلبة: يهود معظمهم يرتدون القفطان. توجد في المباني في الساحة محال الأثاث ومحال تبيع جلود الحيوانات. وبينما كنت أمر من داخل أحد هذه المباني، وجدت نفسي مرة أخرى في ساحة مكتظة بالناس مليئة بالصناديق. بأزواج من الجياد يقوم الحمالون اليهود بتحميلها أو إنزال حمولتها . نيلوكي كان يحوي أيضا مقار مشاريع ضخمة. لافتات مشاريع زاهية الألوان تعلن عن العديد من المؤسسات: تعمل في جلود الحيوانات والفراء والبزات والقبعات والحقائب والصناديق. توجد تجارة بالمحال والطوابق العليا . في اتجاه المدينة في الجزء الجنوبي بشارع الدلوجا، توجد محال كبيرة حديثة مفتوحة: محال لبيع العطور، والأختام المطاطية والسلع المصنعة. قرأت بعض الأسماء غير المألوفة هنا مثل وايزيلفيش وكلوبفهيرد

وبلومينكرالنتس وبراندفاين وفارستانديش وجولدكوبف وجيلبفيش جوتبيستاند . لقد أطلق على اعضاء هذا الشعب المنبوذ أسماء تهكمية.[٨١] أقامت نسبة كبيرة من السكان اليهود أيضا في مناطق بجنوب غرب ووسط وجنوب وارسو ومناطق ببراغا . حين يفحص المرء هذه المناطق من حيث الشوارع والمباني، يتضح أن الفصل المكاني بين اليهود وغير اليهود كان صارما للغاية، حتى فيما يتعلق باليهود المتحدثين باللغة البولندية لا اليديشية. لم ينف هذا وجود صلات فوق كل شيء اقتصادية– بين اليهود وغير اليهود . في الواقع، في الفترة التي نحن بصددها بدت أن هذه الصلات قد ازدادت. كان هناك توجها مماثلاً في لودز. غالبا ما شكل الأطفال من اليهود وغير اليهود صلات أوثق غير أن هذه الصلات كانت تضعف كلما كبروا أو كانت تنقطع تماما في النهاية. كانت معرفة غير اليهود بالثقافة اليهودية تتشظى أيضا . قويت صورة اليهود "كغرباء" برداء ولغة مختلفين وعادات وممارسات مختلفة. لقد عكس الفصل المكاني لليهود عزلتهم الاجتماعية . كما بدا أن التعايش كان يجري بصورة أفضل في المدن الصغيرة التي يكون أغلبية سكانها من اليهود .

شهد عامة اليهود ظروفا معيشية شديدة الصعوبة. في عام ١٩١٠ عاش في المتوسط ١١٦ شخصا في المباني السكنية بوارسو أما في لودز فبلغ عددهم ٤٠ شخصا . بالنسبة لليهود، لابد وأن وقع الأرقام أسوأ بكثير. يمكننا التعرف من المذكرات المدونة والنصوص الأدبية عدد من كانوا يكتظون سويا في المباني والمساكن التي كانت توجد بها أيضا مكاتب للحسيدية وغرف للصلاة ومشاريع بالقبو وورش صغيرة ومخازن. غني عن القول ان مثل هذه الظروف– المماثلة لتلك القائمة في الأحياء العشوائية التي كان يقطنها غير

[٨١] ألفريد دوبلن، رحلة في بولندا (ميونيخ، ١٩٨٧)، ص. ٧٤.

اليهود- كانت تشجع على الجريمة. زخرت تلك المناطق بجميع أشكال الجريمة من التسلل إلى الاتجار بالسلع المسروقة والدعارة والجريمة المنظمة.

أسهمت شبكات الاتصال الوثيقة - في إطار هذه الظروف المعيشية- بشكل كبير في تضامن اليهود في كلتا المدينتين. اعتنق حوالي ثلثي يهود وارسو الحسيدية التي- رغم كل الاختلافات الدينية الداخلية بها- كانت أكثر الجماعات وحدة بين اليهود. لفترة طويلة ظل الصدوق جورا كالواريا (ألمانيا) بجبل كالفاري بالقرب من وارسو أحد أكثر الشخصيات احتراما بين الحسيديين الذين كانت تقوم أعداد كبيرة منهم بصفة مستمرة بالحج إلى قصره. في عام ١٨٥٩، قام الحاخام إسحاق مايير روثنبرج ألتر (١٧٨٩- ١٨٦٦) بتأسيس جماعة هنا مثلت نمطا من "الحسيدية الشعبية" وسعى إلى التخفيف من شدة الفقر بين الطبقات اليهودية الدنيا.

في الوقت ذاته، كانت وارسو مركزا فكريا للحركة الاندماجية بين اليهود. على وجه اليقين، لم يختر هذا الطريق سوى الأقلية - أغلبهم من رجال الأعمال أو الذين يعملون بمشاريعهم الخاصة. من اليسير تخيل الصعوبات التي واجهت هذه الجماعة بما فيها التوتر المرتبط بالتوجه نحو الصناعة والقومية البولندية وبعد ١٨٨١ التمييز المتزايد ضد اليهود من قبل الدولة القيصرية التي وصلت إلى حد التحريض على أعمال العنف ضد اليهود والمذابح المعادية للسامية.

أوضحت أعمال عنف عيد الميلاد بوارسو عام ١٨٨١ كيف يمكن التنفيث عن المشكلات الناجمة عن التغير الاقتصادي- الاجتماعي الجذري على حساب اليهود وكيف يمكن أن يترجم الحقد تجاه القلة الأثرياء من اليهود إلى عنف ضد جميع اليهود. اندلعت موجة من الذعر أثناء قداس عيد الميلاد أسفرت عن مقتل ٢٠ شخصا، وقد وجهت الاتهامات إلى أحد اليهود بأنه هو الذي

بدأ الأمر برمته. في ظل الإثارة التي حفزتها موجة العنف في روسيا في أعقاب اغتيال ألكسندر الثاني، اندلعت اعمال النهب لليهود. لم تتدخل الشرطة إلا بعد مرور ثلاثة أيام كاملة. لم ينجح اليهود في الدفاع عن النفس إلا في بعض الأحيان. في إحدى المناطق البروليتارية قام البولنديون بالقتال جنبا إلى جنب مع اليهود ضد الناهبين.

كانت الخلفية الاجتماعية للاضطرابات بمدينة لودز عام ١٨٩٢ أكثر جلاء. فقد تحول ما كان في البداية مجرد حركة إضراب ناجحة إلى عمل مناهض لليهود على الأرجح بتحريض من السلطات الروسية كي يصبح من الأسهل إرسال قوات للقضاء على "الثورة". لم تكن البروليتاريا بالمدن هي فقط من شارك في أعمال العنف، بل قام بها أيضا الفلاحون الذين أتوا إلى مدينة لودز بعد سماع شائعات حول ما يحدث لمعاقبة اليهود على قيامهم المزعوم بأنشطة مناهضة للكنيسة. علاوة على ذلك، فإن سماح عدد من العمال – بالرجوع إلى الرأسماليين اليهود– لأنفسهم بالابتعاد عن أهدافهم يوضح إلى أي مدى كان من الممكن لليهود أن يلعبوا دور العامل المحفز في الصراعات اجتماعية التي لا يدركون أبعادها بوضوح.

شعر هؤلاء الذين تشككوا من قبل في جدوى الاندماج بأن موقفهم هذا مبرر، وشرع المزيد من اليهود في الانضمام إلى المنظمات الصهيونية أو الاشتراكية. كانت تراود الكثيرين الشكوك بشأن حقيقة مكانتهم في المجتمع.

الأسرة اليهودية

شكلت الأسرة مركز الحياة اليهودية. كوّن المنزل والمعبد اليهودي وحدة بالمعنى الديني، يمكن من خلالها إضفاء قداسة خاصة حتى على افقر البيوت اليهودية. شارك هذا بالتأكيد في تحقيق الوحدة الداخلية لليهود.

كان الأب هو عماد الأسرة ولو كان من النادر تواجده في المنزل (بسبب عمله كوسيط بين الريف والمدينة أو بائع جوال أو لوقتمينش) لم يبتعد الأب عن المنزل في أيام السبت وأيام العطلات الدينية إلا في ظروف ملحة. كان الوالد هو المسؤول عن أداء الطقوس الدينية وتقديم نموذج يحتذي به أبناؤه في احترام العادات الدينية. في غيابه، كانت تحل محله الأم في الاضطلاع بهذه المسؤولية. إلى جانب التعليم النظري والتطبيقي للتشريعات والعادات الدينية، كان الأطفال يتعلمون معنى الحب الأخوي من رؤيته بين أعضاء الأسرة الواحدة. في يوم السبت- وغالبا في أيام أخر- كانت الأسر اليهودية تدخل المتسولين أو عابري السبيل أو الفقراء ليطعموهم ويضيّفوهم. بذلك كان يأكل اليهود الفقراء من حين لآخر مع الأسر ميسورة الحال التي بهذه الطريقة قدمت إسهاما ماديا هاما لحضورهم بالمدارس أو حتى لدراساتهم المختلفة. في البيت اليهودي التقليدي بأوروبا الشرقية تكامل الدين والحياة اليومية تكاملاً تاما.

أما في الأسر اليهودية الليبرالية النازعة إلى الاندماج، فقد ابتعد العالمان عن بعضهما البعض. لم تبد هذه الأسر احتراما كبيرا للديشية وكانت تهتم بشكل أكبر بإتقان اللغة والسلوك القوميين. تلقى أطفالهم أفضل تعليم علماني ممكن. رغم ذلك احتفظت هذه الأسر برموز وعادات يهودية كثيرة بيد أنه يتعين اعتبارها مجرد شكليات. نتيجة لذلك، عاش الكثير من اليهود في صراع داخلي: لم تعد العادات والديانة اليهودية تقدمان لهم أي دعم، غير أن اليهودية العلمانية لم تقدم بديلاً له نفس القيمة لمساعدتهم على التأقلم مع كونهم "مختلفين" عن الثقافة المحيطة.

كان من الممكن تمييز المنزل اليهودي من الخارج من خلال الميزوزا، وهو أنبوب ضيق صغير مصنوع من الزجاج أو الخشب أو المعدن معلق بزاوية بالثلث العلوي من عضادة الباب بحيث تشير

طرف الميزوزا إلى داخل المنزل . يقال إنه بوضعها (الميزوزا) بميل، كان اليهودي يحاول إرضاء مذهبين يختلفان في وجوب وضع النصوص المقدسة بشكل قائم أم على جنب. يوجد في الأنبوب الصغير رُقية ملفوفة أو مطوية بحذر، منقوش عليها آيات مقدسة من أسفار موسى الخمس (سفر تثنية الاشتراع إصحاح ٦ : آيات ٤٩و ١١-١٣و ٢١) . يمكن للمشاهد فقط رؤية كلمة *"شداي"* (تعني: القادر) على ظهر ورقة الرقية. بوجه عام، كانت هناك الكثير من الصور والأغراض داخل المنزل أيضا- يزيد عليها في منازل الحسديين علامات القبالاة- التي كانت تعبرعن ارتباط صاحب المنزل بالدين والتاريخ. غالبا ما كان يحتفظ أصحاب اليهود في منازلهم أيضا بلفائف التوراة المكتوبة بخط اليد في دولاب خاص، الأمر الذي مكنهم من إقامة الشعائر الدينية بالمنزل مادام هناك على الأقل عشرة ذكور -*مينيان*- مجتمعين.

كانت التشريعات الدينية - ناهيك عن إيقاع الصلاة- تحدد مسار اليوم. لهذا الغرض كان اليهود يلفون أنفسهم في شال الصلاة -*الطاليت*- قطعة من القماش الصوف أو القطن بها خطوط سوداء أو زرقاء داكنة وتثبت بها الشراشف (تسيتسيت) في الأركان الأربع وفي لحظة معينة بصلاة الصبح يجب أن يرفع المصلي هذه الشراشف إلى فمه. على الأقل أثناء صلاة الصبح، يرتدي اليهودي الملتزم على جبهته وذراعيه بأسلوب تحدده النصوص الدينية تعويذة أو *تيفيلين* مثبتا بها حقيبة صغيرة مكعبة الشكل تحوي نصوصا من التوراة مكتوبة على رقية. تكون الرأس واليد والذراع كلها في خدمة الرب.

الرجال والنساء في المجتمع اليهودي

"أبي، ماذا سأصبح حين أكبر؟" سألت دبورا أباها ذات يوم بمزيج من الجدية والتهكم، لأنها بقدر ما تتذكر لم يقم الخاخام أفرام بير بامتداحها عند أمها أبدا.

أصيب الحاخام أفرام بير بالدهشة. كان الرأي السائد بين اليهود الورعين يقول أنه لا يمكن أن يكون لحياة المرأة سوى هدف واحد تأمله وهو إدخال السعادة على المنزل بخدمة زوجها وحمل أطفاله. لذا فهو لم يجب عليها حتى. لكن عندما ألحت عليه بالسؤال قال ببساطة: "ماذا ستكونين حين تكبرين؟ لا شيء بالطبع!"[٨٢]

كانت الزوجة مسئولة عن رعاية الأسرة ويبدأ هذا بالالتزام الصارم بالتشريعات الدينية ثم تعليمها للأطفال. شكلت هذه القوانين عماد التربية الأسرية ولم يكن من المقبول أن يقاومها الأبناء. حددت هذه الصرامة أيضاً طبيعة العلاقة بين الآباء والأبناء. نادرا ما كان يسود المنزل جو غير رسمي وغالبا ما كان الأبناء يستخدمون أساليب الخطاب الرسمي مع آبائهم.

غالبا ما كان العبء الرئيسي لكسب رزق الأسرة يقع على عاتق الزوجة أيضا. كانت أغلب الأسر اليهودية فقيرة وفي كثير من الحالات كان الزوج يكسب اقل القليل، أو كان يستمر في دراساته الدينية التي لم يكن يكسب منها شيئا. من ثم، نجد الكثير من النساء اللاتي عملن كتاجرات بالأسواق أو مديرات للمحال الصغيرة أو بائعات جائلات. بطبيعة الحال، كان من المتوقع من المرأة إلى جانب هذا القيام بإدارة المنزل.

قد يبدو في الظاهر أن الزوجة اليهودية تتمتع بمكانة أدنى من لزوجها. كان هذا هو الحال غالبا في الواقع العملي. رغم ذلك، كانت الأمور مختلفة من المنظور الديني. بينما كان الزوج يتعبد في المعبد اليهودي ويتقرب من الرب من خلال دراسة الكتاب المقدس في المنزل، كانت الزوجة تؤدي المهام التي أوكلها إليها الرب؛ أن تجعل من المنزل مركزا للحياة الدينية. لأن هذا الالتزام شكل عبئا كبيرا

---

[٨٢] ستير كرايتمان، ديبورا- الحمقى يتراقصون في الجيتو (فرانكفورت ، ١٩٨٤)، ص. ٦.

على الزوجة فقد أعفيت من تشريعات دينية أخرى ولم تكن مطالبة بإجهاد نفسها بالمشاركة الفعالة في العبادة بالمعبد . تماشيا مع هذا الفهم، ارتبطت تربية الإناث بقواعد منزلية دينية صارمة.

في رواية إسحاق سينجر "أسرة موسكات"، يستجوب الحسيدي موشي جابرييل ابنته المتحررة لوتي التي تقيم بالولايات المتحدة الأمريكية وتزوره في بولندا فيقول:

"إذن، كيف حالك يا ابنتي؟ في أمريكا تتحدثين ... ماذا يطلقون عليها..... الإنجليزية؟"

"لكنني أتحدث أيضا اليديشية."

"سمعت انك أصبحت فتاة متعلمة هناك. هل تذهبين إلى الجامعة؟"

"نعم يا أبتي أنا الآن في السنة الثانية."

"وماذا تدرسين؟ أترغبين في أن تكوني طبيبة؟"

كلا يا أبي فأنا أدرس العلوم الطبيعية."

"ماذا تقصدين؟ الكهرباء؟"

"شيء من كل شيء."

هل تذكرين على الأقل أنك ابنة يهودية؟"

"لا تقلق يا أبت فعداة السامية يعملون على ألا تنسى هذا أبداً."

نعم هذا صحيح. حتى حين يكون اليهودي آثماً فلازال يهودياً. من أقوال يعقوب."

"يقال أنه يوجد الكثير منا في الكليات."

"بهذا الشأن هم على صواب. ما جدوى الكاهن في المدافن؟ وما جدوى اليهودي في مدارسهم؟"

"لكن لا يمكنني الدراسة في معبد يهودي."

إن واجب الأبنة اليهودية هو الزواج لا أن تعبث في المدارس."

"وما النفع من الزواج؟ أود أن أتعلم شيئاً وأن أكتسب المعرفة."
"لماذا؟"
"كي أستطيع كسب رزقي"
"إنه واجب الزوج أن يكسب الرزق أما الزوجة فمسئوليتها أداء مهامها المنزلية "ابنة الملك مجيدة بالداخل" واليهود معروفون بأنهم "أبناء الملوك". [٨٣]

كقاعدة، ظلت حركة التنوير النوعي غريبة على المنازل اليهودية الصارمة بأوروبا الشرقية. كانت الفتيات ينعمن بالحماية من كل الأشياء "غير المهذبة". كان طهر الفتيات من أرفع الواجبات: كان يجب إبعاد أي شيء من شأنه تهديد ذلك. في الواقع لم يكن هناك سوى حالات قليلة من ممارسة الجنس قبل الزواج أو خارج إطاره. مما أسهم في هذا أن الزواج المبكر كان لفترة طويلة هو القاعدة بين اليهود مع تقديم الوالدين للمساندة المادية للزوجين الشابين . غالبا ما كانت الفتيات يتزوجن في سن الخامسة عشر أو السادسة عشر أما الرجال ففي سن الثمانية عشر. منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقط بدأت هذا العادة تدريجيا في التغير حيث بدأت الأسر اليهودية بشرق أوروبا في الانصياع إلى العادات الاجتماعية غير اليهودية.

كان اليهود لا يزالون يرون المثل الأعلى في صورة اليهود البولنديين التي قدمها سولومون ميمون في نهاية القرن الثامن عشر:

مما يستحق الذكر قداسة زيجاتهم والعاطفة المتجددة دائما التي تقوم على هذه القداسة. كل شهر ينفصل الزوج تماما عن زوجته لمدة أربعة عشر يوما (التطهير الشهري المفروض من قبل القانون الحاخامي)، لا يسمح لهما فيها بلمس بعضهم البعض أو الأكل من

---

[٨٣] أيزاك باشيفيس سينجر، عائلة موسكات (ميونيخ، ١٩٨٧)، الطبعة الثانية، ص. ٥٧٣.

نفس الطبق أو الشرب من نفس القدح. وبهذه الوسيلة يتم تحاشي التخمة في المشاعر. تظل الزوجة دائما في عيني زوجها بنفس الصورة التي كانت عليها في عيني حبيبها.

أخيرا، بالهذه البراءة التي تسود هنا بين غير المتزوجين! غالباً ما يحدث أن فتاة أو فتى في السادسة عشر أو الثامنة عشر من العمر يتزوجان دون أن تكون لديهما أدنى فكرة عن الغرض من الزواج وهو أمر غاية في الندرة بين الأمم الأخرى.[٨٤]

كان انفصال الزوجين أثناء فترة الطمث يدوم خمسة أيام. إضافة إلى ذلك كانت هناك سبعة أيام للتطهر. تختتم هذه الفترة بحمام انغماس طقسي في الميكفاه، في بركة من المياه الطبيعية.

كان الزواج عن حب مخالفاً للتقاليد اليهودية رغم أنه بمرور الوقت تكرر حدوثه: "ماذا؟ حب في أسرتي؟ مثل الموسيقيين؟ لا أرغب حتى في سماع ذلك!"[٨٥] كان الوالدان يبحثان عن شريك حياة لأبنائهم بمعونة *الشادخان*، وسيط الزواج. لم تكن أهم معايير زوج المستقبل بأي حال من الأحوال قدرته على إعالة أسرته بل اتساع معرفته الدينية.

كانت العادة السائدة بين اليهود الورعين تزويج أبنائهم قرابة سن الخامسة عشر ثم إبقاءهم في المنزل حتى يستطيعوا إعالة أنفسهم. حتى رايسيل، أقرب بناته إلى قلبه، تزوجت في سن الخامسة عشر. كان الزوج الذي وقع الاختيار عليه شابا يكبرها بعام واحد يدعى الحاخام أفرام بير. جاء الاختيار بسبب تحمسه للدراسة وسمعته الطيبة، حيث أن بعض أسلافه كانوا من أعظم الأشخاص بين شعب

---

[٨٤] قصة حياة سولومون ميمون، من تأليفه وتحرير كارل فيليب موريتس. حررها حديثاً تسيفي باتشا (فرانكفورت، ١٩٨٤)، ص. ٢٣٠. تزوج ميمون نفسه في عمر الحادية عشرة وأنجب أول أبنائه في الرابعة عشر؛ ارجع إلى ص. ٥٢- ٦٦.

إسرائيل وكانوا مشهورين في العالم اليهودي من جميع المناحي. علاوة على ذلك، زعم أفرام بير أنه ينحدر من سلالة الملك داوود. لذلك، بدا هذا الزواج مبشرا. بيد أن الحاخام أفرام بير كان اختيارا غير موفق. من المؤكد، لم يكن هناك الكثيرون الذين يمكن مقارنتهم به في حماسته للمعرفة. غير أنه لم يكن يهتم بالشئون الدنيوية ويتعين العناية به كالأطفال الصغار. خارج مملكة التلمود، كان ببساطة شخصا أحمق.[٨٥]

غير أنه تدريجياً ازداد الاتصال المباشر بين زوجي المستقبل. في البداية، كانوا يتبادلون المراسلات الكتابية– عادة من النوع الرسمي– وكانت تقوم في جزء كبير منها على مجموعة من الخطابات الرسمية. ثم بالتدريج أصبحت طقوس الاتصال هذه أكثر فردية حتى تولى الزوجان زمام أمورهما بين أيديهما وكانا يتبادلان الخطابات الغرامية و يلتقيان سرا. أدى هذا إلى صراعات مريرة داخل الكثير من الأسر.

قبل الزفاف، كان من المعتاد قص شعر الفتيات، وهو إجراء غالبا ما كن يبغضنه. لكن عادة ما كانت تنتهي محاولات التمرد كي تحتفظ الفتاة بالاستقلالية فيما يتعلق بجسدها بالإخفاق. بعد ذلك، كانت الفتيات يضطرن لاستخدام الشعر المستعارالذي كان ينقسم إلى نوعين: البعض يلبس في الحياة اليومية والبعض الآخر يلبس فقط أيام السبت والعطلات. بعض الحسيديين لم يستخدموا حتى الشعر المستعارلأنه غير حقيقي. كان على النساء الحسيديات تغطية رؤوسهن بشكل كامل عند الخروج. كانت الفكرة من وراء ذلك أن شعر المرأة له تأثير مثير للشهوة عند الرجال. بعد الزواج، يتعين على المرأة أن تكون متحفظة مع الرجال الآخرين. لا يجب حتى أن تصافحهم باليد، فقد يؤدي هذا إلى تدمير الزواج وإن انطوى الأمر

[٨٥] إسرائيل جوشوا سينجر، الأخوة الأشكيناز، ص. ١٣٦.

على رجالٍ لا يدينون باليهودية قد يؤدي هذا إلى إخراجها من زمرة اليهود تماما.

بطبيعة الحال، يتطلب الزواج استعدادات مهمة. بصفة عامة، كان الاستعداد للدخول في الحالة المزاجية المناسبة للحياة الزوجية يتم في الميكفاه (الحمام الطقسي) الذي كان يتعين على العروس زيارته الليلة التي تسبق الزواج.

جاءت زوجة الحاخام كي تعلمها كيفية حساب الأيام بعد انقضاء الطمث كي تعلم متى يجوز لها مضاجعة زوجها، وكيف تحافظ على الطهارة الزوجية من خلال الاغتسال المفروض في حمام النساء.[٨٦]

كانت الخطبة تتم تحت *الهوبا*، وهي الظلة التي كانت تتم تحتها مراسم الزواج أيضا. كانت المراسم تنتهي بأن يطأ العريس كوبا بقدمه، وهو ما يرمز إلى أن المتعة يجب أن تكبح إلى حد ما بسبب الحزن على فقدان أورشليم. بعد الزواج– وفقا للتركيب الأموي للأسر اليهودية – كان يذهب الزوجان للإقامة مع والدي العروس اللذين كانا يعولانهما لعامين فيما يسمى (كيس) كي يتسنى للزوج الشاب استكمال دراساته الدينية بلا ازعاج.

من العاداتٍ التي تستحق الدراسة ما يطلق عليه اسم طلاق *الهاليتسا*. وفقا للكتاب المقدس، يجب على شقيق المتوفي أن يتزوج من أرملته إن كان الزواج بلا أطفال أو ما يطلق عليه *ليفيريت*. إن لم يكن أي من شقيق الزوج أو الأرملة راغبا في ذلك، لا تكون هذه الرغبة سارية من الناحية القانونية دون القيام بمراسم أمام مجموعة من الحاخامات *ومينيان* (نصاب)، الحد الأدنى من الرجال، لتمثيل "جماعة من بني إسرائيل" لأغراض تتعلق بالطقوس الدينية (عشرة

---

[٨٦] أيزاك باشيفيس سينجر، حب قديم. قصص حب (ميونيخ- فيينا، ١٩٨٥)، ص. ١٣ ("جوشنا وشميلكه").

رجال) . يضع أخو الزوج فردة حذاء توجد في المجمع الحاخامي لهذا الغرض في قدمه اليمنى. بهذه الطريقة يكون قد انتهك بشكل رمزي شروط التقوى والورع لأن أقرب أقاربِ الشخص المتوفى يجب أن يسيروا بلا أحذية لمدة سبعةِ أيام حدادا عليه. ثم تخلع الأرملة هذا الحذاء عنه وتلقي به بعيدا وتبصق في وجه شقيق زوجها الراحل. يطلق على طقس خلع الحذاء هذا *هاليتسا* مما يخول للأرملة الحصول على شهادة بالطلاق التي بدونها لا يمكن أن تتزوج مرة أخرى.

حتى الطلاق نفسه يجب أن يتم أمام مجمع حاخامي ومينيان (نصاب) . في هذا الصدد، يجب الالتزام بقواعد شديدة الدقة والتعقيد؛ من المحتمل أن تكون قد وضعت لتزيد من صعوبة الطلاق. إحدى هذه المشاكل كانت تثيرها حالة *الأجونا* ، الزوجة التي اختفى زوجها . لا يمكن في هذه الحالة اعتبار الزوجة أرملة ولا مطلقة لأنه وفقا للتشريعات الدينية يجب على الزوج أن يضطلع بدور ما . من ثم لا تستطيع الزوجة أن تتزوج مرة أخرى إلا إذا أكد عدد من اليهود المتدينين وفاة الزوج. في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد أن أصبح الكثير من اليهود في عداد المفقودين كانت هناك مساعي لتخفيف هذه القوانين الصارمة. على سبيل المثال، بدأ قبول شهادة غير اليهود في هذه الحالة.

مع ظهور المثل العليا البرجوازية، بدأت التغيرات أيضاً تمتد إلى الزواج. حتى الآن كان من أحد واجبات الزوجة العمل على أن يحاكي زوجها الأتقياء والورعين. أجبرت الظروف المزيد من الأزواج على اكتساب طرق علمانية للبقاء. من المذكرات المدونة، نعرف أنهم غالبا ما تخلوا بسرعة وبشكل جذري عن دينهم ودين آبائهم وأعلنوا عن أن التعليم العلماني هو معيار التقدم ومنعوا زوجاتهم — اللاتي غالبا ما كن متفوقات عليهم في هذا الصدد– من لعب أي دور بالأنشطة التجارية وبدأوا حتى بالتدخل في إدارة زوجاتهم

لشؤون المنزل. لقد انقلبت مقاييس السلطة التقليدية في العلاقة الزوجية رأسا على عقب. لإضفاء الشرعية على أفعالهم وإراحة ضمائرهم الفاسدة، أجبر الكثير من الرجال زوجاتهم على عدم ممارسة الشعائر الدينية. نتيجة لذلك، ضاعت هذه الوظائف الأساسية التي كانت تقوم بها المرأة في مجال التجارة وفي إطار أسرة. نتيجة لهذه التغيرات، تهربت بعض اليهوديات من الدور الذي كان يناط بهن. من قراءاتهن، بدأن يكوّن أفكارا أخرى عن الحب والزواج والحياة عامة. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قامت المزيد من الفتيات– حتى في الأسر المتدينة الصارمة– باختيار شريك حياتهم، ليس هذا فحسب بل تركوا أيضا والديهم من أجل الدراسة أو السعي وراء التحرر في مكان آخر. انضمت الكثيرات منهن إلى جماعات اشتراكية؛ يمكن أن نتبين هذا بنظرة إلى الحركة الثورية في روسيا. أما نساء الطبقات الاجتماعية الدنيا، فقد مثل العمل بأجر أحد طرق تحقيق الاستقلال. غالبا ما ارتبط هذا بالفقر وخاصة مع قلة فرص العمل المتاحة. أما نساء الأسر "التي انضمت إلى الطبقة البرجوازية"، فقد تجسدت الأزمة التي أثرت على الطريقة التي دوما ما نظروا بها إلى أنفسهم في الإصابة ببعض الأمراض البسيطة والاضطرابات العاطفية. تصور هذه الأزمة رواية "تيفي بائع الحليب" التي كتبها شوليم أليشيم:

يقول: "هناك أشخاص في بيهوبيتس كانوا حتى وقت قريب يسيرون حفاة الأقدام، أشخاص كانوا بالأمس فقط سماسرة ومدرسين وخدم أما اليوم فهم يملكون منازل وتعاني زوجاتهن من شيء ما في أمعائهن وتتجهن للعلاج في منتجعات بالخارج ... [٨٧] إن كان بوسع المرء تحمل النفقات، كان الذهاب إلى المنتجعات الصحية

[٨٧] أليشيم، تيفي بائع الحليب، ص. ٣٨.

صرعة العصر، لأن هذا ما كانت تفعله النساء البرجوازيات من غير اليهوديات. توجهت العديدات إلى فيينا "للأطباء العظام" الذين كان بوسعهم أيضا علاج الأمراض العقلية. لا عجب إذن أن نسمع أن الكثير من مريضات وطالبات سيجموند فرويد وغيره من المحللين النفسيين كن من يهوديات أوروبا الشرقية.

هناك استراتيجية أخرى تبنتها اليهوديات محاكاةً لغير اليهوديات، ألا وهي رعاية الفقراء والقيام بأعمال الخير واستراتيجية جديدة لتعليم الآخرين كيفية مساعدة الذات. اعتنق البعض أيضا الصهيونية كفرصة لإقامة الجسور بين جذور اليهود والقيم الحديثة. بهذه الطريقة تمكنت الأم اليهودية من تربية أبنائها في ظل اليهودية "المحضة" ونجحت الزوجة في العودة بالزوج إلى حظيرة اليهودية. في المجمل، لعبت النساء دورا شديد الأهمية في تشكيل هوية يهودية شرق أوروبية جديدة تتسم بالاستقلالية والتضامن والوعي بالذات.

التربية اليهودية

بطبيعة الحال، كانت أسس تربية الأطفال تعتمد على الأسرة. كان حجر الزاوية في عملية التربية هو الالتزام بالشرائع والطاعة والتقوى. بقدر الإمكان كان لابد وأن يشكل المعتقد الديني وأفعال المرء وحدة تبدأ من داخل الأسرة. لذا فقد ارتبطت تعاليم التوراة والتعاليم الدينية التقليدية بشكل وثيق باحترام الوالدين والذي اتسع في ذلك الوقت ليشمل احترام المعلمين ومعلم الحرفة والعلماء وغيرهم من الأشخاص المبجلين.

منع الكثير من الإناث من متابعة الدراسة وتلقي التعليم التقليدي ذي التوجه الديني. نتيجة لذلك، اكتسبت النشاء اليهوديات في كثير من الأحيان المعرفة العلمانية واطلعن على الأدب غير اليهودي في وقت مبكر وبشكل أكبر من الرجال وبدأن في المشاركة في الحياة العامة. على الجانب الاخر، كان تعليم الأبناء الذكور خارج المنزل

يبدأ حين يصل الصبي إلى سن الرابعة. كان والده يصحبه إلى الحيدر (المدرسة الأولية الخاصة)، "الكلمة تعني بالعبرية الغرفة"، التي تكونت عادة في شرق أوروبا من مبنى خشبي ذي طابق واحد. غالبا ما اتخذ هذا الحدث شكلاً شعائريا ذي مراسم احتفالية خاصة. في المنزل ...

كانت تبسط مائدة عامرة بالمخبوزات والمشروبات. كنت أحتل مكان ضيف الشرف وكانوا يشربون نخبي؟ كانت أمي تعتني بالضيوف بنفسها. ناولني شخص ما كتاب صلوات، صفحتان منه ملطختان بالعسل وكان يفترض بي أن ألعقهما. حين أحنيت رأسي طاعة في خضوع، انهال علي وابل من العملات الفضية والنحاسية. لقد منحها لي– حسبما قال جدي– الملائكة. لأن الملائكة آمنت بي –على حد قوله – عرفوا أنني سأكون تلميذا نابها، ولهذا السبب أرادوا أن يمنحوني هبة حين أوشك الاحتفال على الانتهاء، قام والدي برفعي وغطاني من رأسي حتى أخمص قدمي بالطاليت [شال الصلاة]، وحملني بين ذراعيه حتى وصلت إلى الحيدر(المدرسة الأولية الخاصة). لم تستطع أمي أن تصحبنا إلى هناك؛ فقد كان هذا أحد الشئون المخصصة للرجال. كانت هذه هي عادتنا؛ كان على الأب أن يحمل ابنه طوال الطريق إلى الحيدر بين ذراعيه. لم يكن لدى الوالدين أي إدراك للفكرة من وراء ذلك: كان الطفل قرباناً يقدمونه إلى الحيدر...[٨٨]

كان الأولاد يجلسون في مجموعات من الصباح وحتى المساء مكرسين أنفسهم لدراسة الكتب الدينية. هناك كانوا يتعلمون قراءة

---

[٨٨] شمايرا ليفن، ب"شعرك الرمادي يا سليمان. قصص يهودية شرق أوروبية، تحرير أولف ديدريش بالاشتراك مع أوتو م. ليليان وجيرمانيا جودايشا (ميونيخ، ١٩٨٨)، طبعة جديدة، ص. ١٣٥-١٤٢، هنا ص. ١٤.

الكتاب المقدس والكتابة والصلاة بالعبرية إلى جانب القيام بالعمليات الحسابية الأربعة وتعلم أسس الأخلاقيات اليهودية. لم تكن العملية التعليمية تجري في صمت، بل كانت النصوص تغنى أو تتلى بطريقة تشبه الغناء. الأمر الذي قد يبدو للملاحظ الغريب وكأنه مجرد "تسميع سريع" للنص، كان يعد وسيلة خاصة لمساعدة الطلاب على التركيز. في الحيدر كان يشرف على الطلاب *الميلاميد* "العلماء". لم يكن *الميلاميد* قد تلقوا تعليما أكاديميا بخلاف معلمي المستوى العالي أو من يطلق عليهم *المور*. كان الميلاميد، الذي يعيش عادة مع أسرته في مبنى الحيدر، يتلقى المال من الآباء لتعليم أبنائهم أكبر قدر ممكن بأسرع وقت. لذا، كان يقع تحت ضغوط الحصول على نتائج سريعة ومن ثمّ كان *الميلاميد* صارما للغاية. لم يكن العقاب الجسدي نادرا. لم يكن بوسع الكثير من الآباء لفقرهم توفير أفضل *ميلاميد* لأبنائهم. نتيجة لذلك، كان حضور *الحيدر* ضربا من ضروب العذاب لهؤلاء الأطفال. كثيرا ما كان الوضع أسوأ من ذلك في المدارس الأولية الخيرية، التي كانت النقيض من الحيدر تديرها منظمات خاصة أو الجماعة اليهودية. كانت المدارس الأولية الخيرية مقامة للأيتام أو أبناء الأسر المعوزة. في نفس المبنى أو في مبنى قريب، كانت تقام *البيت ها ميدراش*، "بيت الدراسة" الخاص بالجماعة اليهودية الذي كانت تتم فيه الدراسات الدينية.

حين كان الابن يبلغ عامه الثالث عشر، يجب أن يكون قد اكتسب معرفة دينية كافية ليلقى قبولا من جانب المجتمع بوصفه "ابن الوصايا" أو *بار ميتسفاه (بلغ سن التكليف الديني)*. كانت هذه المراسم- التي ترمز للانتقال إلى مرحلة البلوغ- تتم في المنزل والمعبد اليهودي. كان ينادى على *البار ميتسفاه* (بالغ سن التكليف الديني) أثناء القداس الديني للقراءة من التوراة ولأول مرة يمكنه تلاوة الصلاة.

بعد *الحيدر* أو المدرسة الأولية الخاصة يمكن للأبناء استكمال الدراسة في *البيشيفاه* (الحلقة التلمودية) أو الأكاديمية الدينية. كانت هذه *اليشيفوت* توجد في الجماعات اليهودية الكبرى أو في المراكز الحسيدية. في تلك الأكاديميات، كان الحاخامات إلبارزون المتفقهون في التلمود يلقون محاضرات. إن أصبح الابن متفقها في التلمود، لكان هذا أعظم ثروة يمكن أن تملكها أسرة يهودية فقيرة من شرق أوروبا. غير أن اكتساب التعليم الديني والانخراط في الدراسات الدينية التي تستمر مدى الحياة غالباً – من منطلق المكانة الاجتماعية– أصبحت عادة قاسيةالتزمها الكثير من الشباب بدلا من محاولة تحسين الظروف المعيشية لأسرهم. لم يكن تعلم الحرف اليدوية أو التجارة يحظى بتقدير كبير. كقاعدة، لم يكن هناك تعلم جاد للحرف اليدوية وغالبا ما خرج المتدرب منن فترة التعلم برغبة في تعلم شيء ما. من المؤكد أن التجار الناجحين كانوا يلقون كبير الاحترام. غير أن القلائل فقط هم الذين استطاعوا تحقيق النجاح. لم يتمكن سوى الآباء الأثرياء من توفير التعليم الجيد لأبنائهم فيما يتعلق بشئون التجارة إلى جانب تعليمهم الديني. حاول اليهود الليبراليون النزاعون إلى الاندماج أن يكفلوا تلقي أبنائهم لنفس التعليم العلماني الذي يحظى به غير اليهود. وقفت القيود التي فرضتها الحكومات المتعددة – مثل تحديد حصة الطلاب اليهود في روسيا القيصرية– كعقبة كئود أمام هذه المحاولات. لذا قام الكثير من اليهود الميسورين بإرسال أبنائهم إلى مدارس غرب أوروبا أو هاجروا إلى هناك.

حيث ساد الاستعداد للاندماج كما هو الحال في المدن الكبرى بالاتحاد النمساوي–المجري، زالت أهمية تلقي التعليم اليهودي. بدلا من *اليشيفوت*، تم تأسيس كليات لاهوتية يهودية حديثة في بيرسلاو على سبيل المثال عام ١٨٥٤. في الأماكن الأخرى كان اليهود ينظرون إلى خريجي هذه المؤسسات بشيء من عدم الثقة. أحاطت

الشكوك أيضاً بخريجي كليات تدريب المعلمين المؤسسة حديثاً لليهود الذين رغبوا في التدريس في المدارس الحكومية اليهودية التي وفرت تعليما شاملاً. سرى الخوف من تلاشى الثقافة اليهودية التقليدية خاصة في تلك المدارس اليهودية التي اعترفت بها الدولة. كانت الحكومة تحدد المناهج الدراسية لهذه المدارس. لذا لم تلعب الثقافة اليهودية سوى دور ثانوي في هذه المدارس.

العادات الدينية اليومية

مثلت إدارة المنزل وإعداد الطعام الشرعي (*الكوشير*) جانباً هاما من الفروض الدينية كما لعبت هذه المهام دورا تعليميا. كان يتعين على الطعام والشراب وأيضا عملية تخزين مواد بعينها أن تتفق مع التشريعات الخاخامية كي تكون مناسبة للاستعمال. هذا هو ما يطلق عليه كوشير أو الطعام الشرعي.

كانت مسئولية الحفاظ على *الكوشير* (الطعام الشرعي) تقع على عاتق الزوجة ولا يسمح للزوج بالتدخل. كانت وجبات *الكوشير* وإعدادها تضفي شعورا بالنظافة الداخلية والتحكم في النفس والإشباع الديني. من ثمّ، كانت العادات التقليدية تحظى باحترام كبير أثناء إعداد الطعام الشرعي. اندمج كل من الدين والتقاليد لتصبحا شيئًا واحدا. كانت ولازالت أهم مناسبة في الحياة اليهودية يوم السبت. يتم تنظيم يوم العطلة هذا بكل الواجبات المفروضة فيه حتى أدق التفاصيل ويجب احترامه نبوعا من الرغبة الشخصية في ذلك لا بهدف تلقي شيء من الرب في المقابل. بين يهود شرق أوروبا، كان هناك التزام صارم بتعاليم التلمود وتعليمات الكثير من الخاخامات المبجلين. على سبيل المثال، كانت الألعاب محرمة وكذلك النزهات والرحلات الطويلة (التي تزيد على ٢ كيلومتر). كان هناك أيضا تحريم للأنشطة غير الضرورية في تناول الغذاء مثل الكتابة والقطع والتمزيق وإشعال النار وحتى الطبخ. كان يسمح في

هذا اليوم بالخلود للراحة والأكل والشرب والصلاة وقراءة الكتب الدينية. كما تتوقف الأنشطة الاتجارية -مهما كان نوعها- من ظهر يوم الجمعة وحتى مساء الأحد. غالباً ما كانت تغلق الطرقات بالسلاسل لإيقاف حركة السير. حتى الأطفال والشباب لم يكن يسمح لهم باللعب أو ممارسة الرياضة أو الذهاب للمسرح. كان اليهود الأرثوذوكس يتحاشون اليهود الليبراليين في يوم السبت. للتخفيف من الشروط الصارمة ليوم السبت- أو شروط أيام العطلات كان مسموحا *بالإيروف* أو "الاختلاط" في المنطقة المحددة؛ مع وجود حبل السبت كان من الممكن التوسع في المناطق الخاصة باليهود على حساب عامة الناس من أجل التمكن من حمل الأشياء إلى تلك المناطق. رغم ذلك، كانت القواعد الصارمة تضمن ألا يبتعد اليهود أكثر من الازم. رغم كل المحرمات، من المفترض أن يكون السبت يوم مرح وبهجة. في هذا اليوم كان الناس يبتهجون بالخلاص ويختبرونه قبل حدوثه. كان يقال:

في ليالي الجمع والسبت كان يتعين على الأزواج إيلاء رعاية خاصة بواجباتهم الزوجية لأن هذا أيضا يعد بهجة السبت. (كان أتباع القبالاة وخاصة الحسيديين يضاجعون زوجاتهم فقط ليالي الجمع)[٨٩] في صباح يوم الجمعة تقوم ربة المنزل بكل التجهيزات الضرورية للإستعداد ليوم السبت من تنظيف وطبخ وخبز. كان عليها ايضا أن تخضع *للميكفاه* وهو حمام طقسي من أجل أن تكون طاهرة من خلال الانغماس الكامل في الماء. تتذكر بيلا شاجال طفولتها قائلة:

---

[٨٩] أولريش جيرهارد، الحياة اليهودية في الطقوس اليهودية. دراسات وملاحظات ١٤٠٢- ١٩٣٣. مراجعة وتعليق تسيفي سوفر. تحرير ديتريش جيرهارد ومالوين ميزر وبيتر ميزر (هايدلبرج، ١٩٨٠)، ص. ١٤٥.

كانت الحرارة تلفحني في فمي وتدمي قلبي." هذا هو الجحيم لجميع من اجترحوا الكثير من الآثام" كنت أقول هذا لنفسي ثم أهرول مسرعة خلف أمي تجاه الحمام الطقسي والآن أنا في غرفة مظلمة كالزنزانة. على منصة صغيرة تقف العجوز التي تقوم بغسلنا حاملة في يديها مصباحا وقطعة قماش من الكتان. أمي – التي أخشى عليها– تهبط صامتة الدرج الزلق لتنغمس أكثر وأكثر في المياه حتى تصل إلى عنقها.

حين تتلو العجوز كلمات ما لتتبارك بها، تضطرب أمي كشخص مدان. تغلق عينيها وتكمم أنفها وتغمس نفسها بالكامل تحت الماء كما لو كانت ستظل هناك للأبد – معاذ الرب.

"كووشير" تصرخ العجوز بصوت كأصوات الأنبياء. اضطرب كما لو كنت قد صعقت بعاصفة رعدية وأنتظر هناك وفرائصي ترتعد. سرعان ما تنزل صاعقة من البرق من الروافد المعتمة للسقف وترديني جميعا قتلى أو تجتاحنا الفيضانات من الجدران الحجرية لتغرقنا جميعا.

"كووشير" تصيح العجوز مرة أخرى. أين أمي؟ فأنا لم أعد أسمع صوتها.

ثم فجأة، وكأن مياه المسبح انشقت، تظهر رأس أمي من الأعماق. إنها تقطر ماء وترتعد كما لو كانت آتية من قاع البحر. لا أطيق الانتظار حتى تتوقف العجوز عن الصياح حتى لا تضطر أمي للنزول تحت الماء ثانية. فهي مرهقة بالفعل والمياه تتدفق من بين شعرها ومن أذنيها.

"فلتنعمي بالصحة والعمر المديد يا ألتا!"

الآن تبتسم العجوز أيضاً. ترفع بيديها النحيلتين قطعة القماش الكتانية. تلفها امي حول جسدها كما لو كانت أجنحة بيضاء وتبتسم كالملاك.[٩٠]

يجب أن تبسط المائدة من أجل وصول ملكة يوم السبت. يجب على الزوجة والأطفال التزين، فوق ثياب العطلة الخاصة بها ترتدي الزوجة غالبا صدرية غالية الثمن تدعى القاميصول (رداء نسائي قصير بلا أكمام). كانت القبعات تزدان في هذا اليوم بشيرتيشل مطرز باللؤلؤ. في الظهيرة، يعود الأب إلى المنزل ويعد نفسه للاحتفال. كان الأب مثلاً يرتدي قفطانا أسود اللون وجوارب بيضاء *والشتراميل*، "القبعة اليهودية" السوداء المصنوعة من الفراء التي يرتديها الحاخامات وبها ثلاثة عشر ضفيرة سوداء. حتى ملابسهم – التي بمرور الزمن اختلفت تماما عن ملابس غير اليهود– كان دورها التعبير عن التقوى والورع. علاوة على ذلك، يمكن للمرء في تفاصيل الملابس أن يعبر عن عضويته بجماعة اجتماعية معينة أو بجماعة الصدوقيين. كان الشينر بيد ("اليهودي الجميل") هو اليهودي الورع العالم– وبشكل نموذجي– ميسور الحال الذي يظهر هذا للعالم الخارجي من خلال ردائه.

كان الوالد يتجه إلى المعبد مع أبنائه حيث تقام المراسم بصورة احتفالية. بصفة عامة، كانت الزوجة تبقى بالمنزل وتشعل شموع السبت حين ترتفع النجوم الثلاث في السماء– ويكون هذا قبل غروب الشمس بحوالي نصف الساعة– تكون هذه إشارة إلى بدء يوم العطلة.

نذكر هناك كلمات بيلا شاجال مرة أخرى حيث تقول:

---

[٩٠] بيلا شاجال، الأضواء المتوهجة (راينبك، ١٩٦٦)، ص. ٣٠ بالكامل.

تترك أمي المحل حتى نهاية اليوم. تتأكد من أن كل شيء مغلق بشكل جيد. الآن أسمع خطواتها الصغيرة. تغلق الباب الحديدي بالخلف. الآن أسمع حفيف ثوبها. الآن تأتي إلى غرفة الطعام بحذائها الناعم. تبقى على عتبة الغرفة للحظة كما لو كان مفرش المائدة الأبيض والشمعدان الفضي ذي الشعب قد أعميا عينيها. ثم تسرع بغسل يديها ووجهها وترتدي الياقة الدانتيلا المغسولة التي دائماً ما ترتديها ليلة الجمعة؛ أم جديدة تماما تسير الآن إلى الشمعدان وتشعل شمعة تلو الأخرى بعود ثقاب. الشموع السبع تتلألأ متوهجة الآن. تعكس الشموع ضوءها على وجه أمي من أسفل وكما لو كانت مسحورة تخفض عينيها. ببطء، ثلاث مرات واحدة تلو الأخرى تحيط أمي بيديها كل شعلة على حدة كما لو كانت تحيط بقلبها. كانت هموم الأسبوع تذوب مع الشموع. كانت امي تغطي وجهها بيديها وتبارك الشموع. كانت دعواتها الخفيضة التي تهمهم بها تمر عبر أصابعها وتضفي على اللهيب الأصفر قوة أكبر. كانت أيدي أمي تتوهج في ضوء الشموع كألواح التشريعات في تابوت العهد.[٩١]

في الشتاء، كان تساقط الجليد يوم السبت له تفسير خاص.

كم هم محبوبون بنو أسرائيل حتى أن الملائكة أنفسهم يندفون أجنحتهم على شرفهم ويفرشونها بساطا من مدخل دار العبادة وحتى مدخل بيوتهم بينما يخرجون للجلوس لوليمة الملك داوود عليه السلام.[٩٢]

في يوم السبت كانت البهجة تمتزج بالوعي بالواجب. تناولت الكثير من الروايات "شاعرية" يوم السبت. دعّم السبت التضامن

---

[٩١] المرجع السابق، ص.٤٢. بصفةعامة كان يتم إشعال شمعتين ليوم السبت.

[٩٢] شاموئيل يوسف أجنون، المنبوذ(فرانكفورت ، ١٩٨٨)، ص. ٢٣.

الأسري؛ ناهيك عن التضامن بين اليهود بصفة عامة. لقد شكل يوم السبت مصدرا هاما تستمد منه القوة اللازمة لمجابهة أعباء الحياة اليومية.

لقد سلب ألباب عدد كبير من اليهود الإعجاب الذي أثاره السجال بين المتعة والسكينة والتدبر في الذات من جانب والالتزام بصرامة أكبر بالتعاليم التقليدية على الجانب الآخر. في الوقت ذاته، كانت هناك أعداد متزايدة من اليهود الذين ضعف التزامهم بيوم السبت تدريجيا –بسبب علاقاتهم التجارية مع غير اليهود أو استعدادهم للاندماج معهم. على سبيل المثال، كان هؤلاء اليهود يديرون أعمالهم من الباب الخلفي، أو لم تعد نساؤهم يذهبن إلى *الميكفاه* بشكل منتظم. تحجرت شعائر يوم السبت لتصبح مجرد شكليات. فقدت الطقوس التقليدية مصداقيتها في ظل هذه الظروف، خاصة عند الأطفال. نتيجة لذلك، عانت البنية السلطوية للجماعة اليهودية.

كان أهم الأعياد الدينية هو يوم كيبور في نهاية سبتمبر أو بداية أكتوبر، وهو يوم التوبة والتصالح بين الرب وأفراد اليهود. كان يفرض في يوم كيبور الصوم التام من مغرب الشمس إلى غروبها في اليوم التالي. لم يكن مسموحا حتى شرب رشفة من الماء. عادة ما كان اليهود الورعون يقضون هذه الليلة في المعبد حيث تبدأ العبادة *بالكول نيدر*، وهو تصريح يلغي به الفرد جميع العهود التي تعهد بها للرب بسرعة أثناء العام المنصرم– طالما تتعلق هذه العهود بالفرد نفسه (تستثنى الالتزامات نحو الآخرين على النقيض مما يشاع غالبا عن اليهود بشكل مشين).

يصف إسحاق سينجر الاستعدادات ليوم كيبور في وارسو إبان الحرب العالمية الأولى فيقول:

كان الحاخام يتجول في الشقة جيئة وذهاباً برأس أشعث تقريباً. كانت الشقة بالطابق الرابع وكانت النوافذ تطل على الشارع والساحة. يمكنك سماع قعقعة العربات بالشوارع والشاحنات وصياح البائعين الذين يعرضون بضاعتهم للبيع في الأكشاك. كان الموسيقيون بالشوارع يعزفون ويغنون. الأطفال يصيحون. الآن فقط أصبحت المعنى الكامل لهذه العبارة من التلمود جليا للغاية: "من الصعب العيش في المدن الكبرى."

كان من الصعب الإقامة في وارسو. كانت الساحة ملحق بها دار للعبادة لكن *الميكفاة* كان يقع على الجانب الآخر من الشارع، وحين يعبر المرء الشارع فهو يحمل روحه على كفيه. في المطبخ، كان ينبغي طهي الطعام بشعلة غاز، ومن بوسعه ان يتيقن من ان الغاز قد تم إنتاجه تحت إشراف يهود صارمين ام لا؟ كانت المياه تأتي من الصنبور ولكن من كان بوسعه أن يعرف إن كانت الأنابيب غير مملوئة بجميع أصناف النجاسة؟

رغم كل هذه الصعوبات، كانت تجري الاستعدادات ليوم كيبور.

في اليوم الذي يسبق يوم العطلة كان الحاخام دان يذهب إلى دار العبادة، حيث كان يتجرع كأسا من النبيذ مع غيره من المؤمنين بعد صلاة الصبح ويتناول قطعة من الكعك. في الظهيرة تكون زوجته قد أعدت سمك الشبوط، والزلابيا، واللفت الأصفر. في الظهيرة، يرتدي الحاخام دان قفطانه الحريري ورداء الحاخامات الأبيض ومعطف الصلاة بذيله المطرز بالذهب. كانت زوجته ترتدي أحلى ثيابها وتغطي رأسها بغطاء رأس مطرز باللؤلؤ. وتظهر بناته وزوجات أبنائه أيضا في أردية العطلات الخاصة بهن. بعد أن يتلو الحاخام بركاته، يتوجه إلى دار العبادة ليشارك في *الكول نيدر*. كانت الساحة تصخب بالضوضاء. كانت النساء اللاتي تم تجنيد أزواجهن يولولن وينتحبن. تبادلت بعض النسوة الأكبر سنا – اللاتي ترتدين شعرا

مستعاراً تحت الشيلان ويحملن كتب الصلاة الزخرفة بالذهب بين أيديهن- التهانئ الحارة بقدوم السنة الجديدة. لم يكن الغسق قد أتى بعد، غير أن دار العبادة كانت بالفعل تتوهج بالضوء. كانت الأرض مفروشة بالقش ونشارة الخشب. أجلس *الشماش* (القندلفت الذي يتقاضى أجرا في المعبد اليهودي) الحاخام دان على مقعد بجانب الحائط الشرقي....

بينما عاد المؤمنون أدراجهم إلى منازلهم، ظل الحاخام دان وعدد قليل من الرجال المسنين في دار العبادة لقضاء الليلة هناك. دفن الحاخام رأسه في مخطوط قديم وأطال التفكير في المجد الزائل لبني إسرائيل....

أزت الشموع و تراقص لهيبها. تمدد رجل مسن بوجه متغضن ولحية بيضاء كثة على احد المقاعد وغط في الانوم. من النافذة، يمكنك التطلع إلى السماء الباهتة الممتلئة بالنجوم وثلاثة أرباع البدر. بينما انتظر هنا مرتديا رداءه الأبيض ومعطف الصلاة، نجح الحاخام دان في نسيان أنه تم طرده من تيراسبول. كان في مكان مقدس يحيطه أبناء جلدته من اليهود وبجانبه كتب الشريعة المقدسة التي يأنس لها. كلا، لم يكن وحده. لازال هناك رب في السماء وملائكة وساروفيم ولازال هناك عرش الرحمة. لم يكن بحاجة سوى لأن يمد يديه ليمس أحد الكتب المقدسة التي كانت كلماتها صوت الرب الحي والرموز التي خلق بها العالم.[٩٣]

كان يسبق يوم كيبور الاحتفال برأس السنة اليهودية *(روش حاشانا)* لعشرة أيام. في ليلة العام اليهودي الجديد، كان الأطفال يتركون خطابات لآبائهم في المكان الذي سيجلسون عليه على المائدة العامرة، يعدونه فيها بأن يظهروا طاعة أكبر لوالديهم في العام الجديد

---

[٩٣] سينجر، عائلة موسكات، ص. ٣٦٠- ٣٦٣.

ويسألونهم الصفح لتجاوزاتهم في العام المنصرم. تقول بيلا شاجال أنه في الظهيرة بعد أداء العبادات يتوجه الناس إلى النهر لتلاوة صلاة تطهير ويلقوا "بخطاياهم في الماء المتدفق".[٩٤]

كانت هناك اعياد أخرى للاحتفاء بأحداث تاريخية مذكورة في الكتاب المقدس. فعيد الفصح في أبريل يحتفي بخروج اليهود من مصر. لمدة ثمانية أيام فقط يمكن فقط استخدام آنية فخارية خاصة وأدوات تقطيع وأواني طهي معينة. يتم إعداد الطعام وفقا لقوانين صارمة خاصة الخبز غير المخمر أو *(الماتسو)*. يجب إخراج أنواع الطعام المعتادة وأواني الطهي المعتادة التي اتصلت بها من المنزل بحذر شديد. في الكثير من الأماكن، كان من المعتاد إبرام عقد بيع زائف مع غير اليهود فيه يبيعونهم الأشياء التي يستعيدونها لاحقا. يبحث الأب عن بقايا اي خبز مخمر أو *هاميت* هو وأبناؤه على ضوء الشموع ويحرقونه وفقا لطقوس صارمة. بطبيعة الحال، تكون الأم قد أعدت فتات الخبز بالفعل.

كان السيدر هو ذروة الاحتفال وهي وجبة احتفالية دسمة. يسير "ترتيب الاحتفال" تبعا لما ورد في الكتاب المقدس بشأن الوجبة احتفالية والتي تطورت منها أيضا فكرة العشاء الرباني في المسيحية. يجلس الوالد جلسة مسترخية مضطجعا للوراء في كرسي يشبه العرش، مزين لهذا الغرض. عموما، إن كان أصغر الأبناء قد تعلم قراءة اللغة العبرية يقوم بطرح أربعة أسئلة على الوالد بشأن معنى الأحداث التي يحتفي بها الفصح اليهودي. يجيب الأب على هذه الأسئلة بتلاوة أجزاء من الهاجاداه (التفسيرات القصصية الأسطورية) التي تحوي الرواية المقدسة عن خروج اليهود من مصر، التي تم نشرها وترويجها بروايات كثيرة وفي كتب مزينة بشكل جميل.

---

[٩٤] بيلا شاجال، الأضواء المتوهجة، ص. ٦٦.

ينتهي الجزء الرسمي من السدر بأمنية : "العام المقبل في أورشليم" . كان الكثير من الحسيديين يعلقون الخبز غير المخمر (الماتسو) ليتدلى من أسقف منازلهم أو في المعابد حتى حلول عيد الفصح التالي كي تظل المناسبة حية حاضرة في الأذهان.

في يونيه كان يتم الاحتفال بعيد الشفوعوت ("أسابيع") ويحتفي هذا العيد بنزول الوحي بالتوراة في سيناء . كان هذا هو الاحتفال بالتوراة. يعتبر ايضا من أعياد الحصاد وله أصل في الكتاب المقدس كيوم ثمار الفاكهة الأولى. لذلك كان الأطفال يزينون المعابد بأفرع الأشجار والأغصان وقمم الأشجار.

عيد السوكوت ("المظال") ويحتفي بتيه اليهود أربعين عاما في البرية والخيمة السعف التي آوى إليها اليهود بعد الخروج. من ثمّ، كان رب الأسرة يبني أكواخا صغيرة من ألواح الخشب بالأغصان والأوراق لتغطية الأسقف. كانت الابنة في الأسرة تزين هذه الأكواخ. كان اليهود الملتزمون أيضا ينامون في هذا الكوخ طوال الليل أثناء أيام الاحتفال في أكتوبر. كان نهاية الاحتفال هو الاحتفال *بسيمحات توراة* (بهجة التوراة) . هذا واحد من أبهج الأعياد وأكثرها صخبا . ينطوي هذا الاحتفال على الرقص والغناء . في الحقيقة كان شرب الكحوليات ضروريا في هذا العيد .

في عشرينيات القرن العشرين شهد جوزيف روث على أحد هذه الاحتفالات في أحد الشتيتلات ويصفه قائلاً:

أمسك الحسيديون بأيدي بعضهم البعض ورقصوا في دائرة وصفقوا بأيديهم ولوحوا بأيديهم إلى اليسار وإلى اليمين مع الإيقاع وأمسكوا بلفائف التوراة وأرجحوها خلال الهواء كما لو كانت فتيات وضموها إلى صدورهم وقبلوها وصرخوا من السعادة. كانت هناك مشاعر شهوانية في هذه الرقصة. أثر في تأثيرا بالغا أن شعبا بأكمله يمكنه تكريس متعته في متعة الحياة لربهم وأن يجعلوا من الكتاب الذي

يحوي أكثر القوانين صرامة عشقهم وأنهم لم يعودوا يستطيعون التمييز بين الرغبة الجسدية والمتعة الروحية بل وحدوا بين الإثنين. كانت الشهوة والحماسة، كان الرقص هو عبادة للرب وكانت الصلاة إفراطا في المتعة. كانوا يحتسون شراب الميد من الأوعية الضخمة ... شاهدت أيضا كيف كان اليهود يفقدون الوعي ... بعد خمسة آنية من الميد القوي لا فرحا بالانتصار ولكن بهجة بأن الرب قد منحهم الشريعة والمعرفة.[٩٥]

عيد هانوكا – عيد الأنوارأو عيد التدشين – الذي يحل في النصف الثاني من شهر ديسمبر– له أصل تاريخي بمغزى ديني. فهو عيد يحتفل بانتصار المكابيين في عام ١٦٧/ ١٦٤ ق.م. على الحكم السوري واستئناف العبادة اليهودية في الهيكل. وفقا للتقاليد، عندما دخل اليهود المعبد الذي انتهك السوريون قداسته، وجدوا برطمانا من الزيت المقدس يكفي ليوم واحد. بيد أنه من الإعجاز أنه بقي لثمانية أيام حتى تمكنوا من الحصول على إمدادات جديدة من الزيت. نتيجة لذلك، يقوم الأولاد وغالبا أيضا النساء والفتيات على مدى ثمانية أيام بإشعال شمعة جديدة كل يوم على شمعدان الهانوكا ذي الشعب وكانوا ينشدون أغاني الهانوكا. لهذا فإنه إلى جانب الشمعدان ذي الشعب الذي يستعمل أصلاً في المعبد، شمعدان المينورا ذي الأذرع السبعة، يوجد الآن في المعبد اليهودي وفي منازل اليهود في عيد الهانوكا– وأيام السبت– المينورا ذات الأذرع الثمانية التي يحملها شماش (خادم) إضافي معه شعلة تستخدم في إشعال الشموع.

من الأعياد المثيرة عيد النصيب (بوريم) الذي يحل في مستهل مارس. يحتفي هذا العيد بنجاة اليهود الفارسيين من الهلاك وفي

---

[٩٥] روث، يهود التيه، ص. ٢٩٣- ٣٦٩، هنا ص. ٣١٥.

الوقت ذاته يحتفي بحقيقة أن الرب يساعد في المواقف الحالكة إن لم يفقد المرء إيمانه. هذه الظروف التاريخية المذكورة مدونة في سفر إستر. من أهم الفروض في هذا العيد الاستماع إلى تلاوة من المجيلاه (اللفائف الدينية) لسفر إستر المكتوب على هذه اللفائف المزينة بشكل جميل. بينما يذهب الرجال إلى المعبد لهذا الغرض، يقوم قاريء خاص بزيارة النساء والأطفال في المنازل. حينما يذكر اسم هامان في التلاوة يقوم الأطفال بإحداث جلبة مخيفة بشخاليل. في هذا العيد يتم تناول عجائن مثلثة تسمى هاماتاشن ("جيوب هامان"). كانت قصة عيد البوريم تروى أيضا في الدراما الشعبية. كانت تقام الاحتفالات في مناخ مفعم بالحيوية مع الموسيقى والرقص والأغاني والألعاب. غالبا ما كان الشباب وكذلك رجال الدين يضعون الأقنعة. لم يكن ينظر إلى الاختلاف في المنزلة والعمر وكان يسمح حتى بتبادل الملابس بين الرجال والنساء والسكر.

نتيجة لذلك، يتحدث الناس غالبا عن "كرنفال يهودي". ربما كان هذا فقط تشابه سطحي يتطلب المزيد من البحث. نعم، هناك أثر لعالم صاخب غير أن أهم ما في الأمر هو السعادة النابعة من حقيقة أنه رغم أشكال المعاناة الناجمة عن الظلم يكون النصر دائما حليف المرء بمعونة الرب. من المحتمل أن تكون بعض ملامح عيد البوريم قد أثرت على الكرنفال المسيحي.

كانت مراسم الدفن أيضا منضبطة للغاية. يصف سينجر عملية دفن ميشولام موسكات الثري فيقول:

كي يبقوا الحشود تحت السيطرة، كانت الشرطة تحضرمراسم الدفن. كانوا يصيحون بأعلى صوتهم ويفرقون الحشود بسيوفهم. كان من المقرر أن يتقدم موكب الجنازة ممثلون من أطفال المدارس الخاصة الأولية التي كانت تعتمد على تبرعات ميشولام. نوحت النساء كما لو كن يبكين قريبا حميميا. أغلق معظم أصحاب المحال

بشارع جيرزيبو محالهم. ولأنه كان من المحتمل تزايد الطلب على سيارات الأجرة في مثل هذه الجنازة الضخمة، فقد توافد أصحاب العربات من جميع أنحاء المدينة إلى منطقة جيرزيبو. همس بعض العجائز الخرفين لبعضهم البعض أن الراحل لم يكن يستحق مثل هذا التكريم.

في حوالي العاشرة برزت عربة الموتى للعيان. قامت الجياد- التي تلفحت بالسواد بفتحات للرؤية عند العينين- بجر العربة وراءهم ببطء. امتدت مسيرة العربات المشاركة في الجنازة خلال شوارع جيرزيبو وتواردا وكروشمالنا وجنوجنا. جفلت جياد العربات وأخذت في الصهيل. تلقى بعض الصبية الصغار الذين كانوا يبحثون عن نزهة على الألواح التي تجرها الجياد في العربات ضربة على رؤوسهم بالسوط. لم يتمتع يهود وارسو بشيء أكثر من استمتاعهم بجنازة ضخمة. قبل دخول عربة الموتى إلى المقابر بوقت كبير، كان حشد كبير من الناس قد تجمع هناك. كان الشباب قد تسلقوا شواهد القبور للحصول على رؤية أوضح. كانت جميع الشرفات في شارع جينشا مليئة بالبشر. خدم المدافن الذين كانوا يرتدون قبعات بقمم لامعة وعباءات بأزرار لامعة أحضروا معهم ألواحا ومجاريف. أحاط المتسولون والمعاقون بوابات المدافن وحفوا الطريق إلى القبر. كان المشاهدون المطلون من الشرفات والنوافذ يخشون من أن تقوم الحشود المتدافعة في المدافن بقلب عربة الموتى أو الدفع بالحاخام إلى القبر المفتوح. غير أن يهود وارسو اعتادوا على الاحتفاظ برباطة جأشهم وسط هذه الحشود المزدحمة. رغم الارتباك، تم كل شيء وفقا للتشريعات والعادات اليهودية. لفت الجثة في الكفن ثم في معطف الصلاة لتدفن. تم وضعت قطع من الوحل على عينيه ووضعت عصا بين أصابعه كي يستطيع الراحل عند قدوم المشياح أن يحفر طريقه للخروج إلى الأراضي المقدسة. تنهد المعزون

وانفجرت النساء في نوبات من الولولة. تلا حفارو القبور المقولة التقليدية: "إنه من الحجر. أتم عمله لأن كل ما يفعله هو عدل رب الحق تنزه عن اي شيء، العادل الحق."

حين تم ردم التراب على القبر تلا أبناء ميشيليم القاديش (التسابيح). هؤلاء الذين تجمعوا حول المقبرة اقتطفوا حشائش ذابلة وألقوها وراء ظهورهم...

في منزل الراحل أقام أبناؤه الثلاثة *الشيفا* (أسبوع الحداد). الأربعة جميعهم جويل وبينجي وناثان ونجونجي أقعوا على مقاعد خفيضة للسبع أيام المحددة [شيفا تعني سبعة بالعبرية] دون أحذية. تمت تغطية مرآة الحائط وعلى النافذة لازال هناك حوض صغير مليء بالماء ومنشفة من الكتان كي تتمكن روح الراحل من أداء الوضوء. في شمعدان زجاجي كانت هناك شمعة احتفائية مشتعلة. باكرا في الصباح وفي العصر كان يتجمع نخبة من الرجال لأداء الصلاة.[٩٦] غالبا ما كان يلقى بعض التراب من أرض إسرائيل المقدسة في القبر مع جثمان المتوفى. وفقا للمعتقدات الشعبية، كان يقصد بهذا الحؤول دون تعفن الجثمان كي يتمكن المتوفى من النهوض حيا مرة أخرى عند قدوم المشياح دون أية عوائق.

المعبد اليهودي ومنظمات الجماعة اليهودية

كان المعبد اليهودي دارا للتجمع والصلاة والدراسة ولذلك فغالباً ما يعرف باسم شول (مدرسة). كانت هاتان الوظيفتان الرئيسيتان تحددان الرسم التخطيطي للمبنى . يجب أن يكون محور الصلاة مائلاً نحو الشرق تجاه الهيكل المفقود في أورشليم الذي سيستعاد يوما ما . في أحد طرفي هذا المحور يوجد تابوت العهد حيث تحفظ

[٩٦] سينجر، عائلة موسكات، ص. ٢٥٣ بالكامل.

لفائف التوراة. في وسط هذه الحجرة، بموازاة هذا المحور يوجد رمز الحكمة- مائدة التوراة. لابد أن تشكل الشريعة مركز الحياة.

غالباً ما لم يكن المعبد بمستوى الأرض بل كان يغوص في الأرض إلى حد ما. لازال من الممكن مشاهدة هذا الأمر في المعبد القديم الحديث في براغ. كانت هذه محاولة لاتباع كلمات المزمور ١٣٠: "من الأعماق صرخت إليك يا رب". غالباً ما كانت هذه العادة أيضاً ترجع إلى منع السلطات المسيحية لإقامة معابد يهودية يزيد ارتفاعها عن المباني المسيحية.

جدير بالذكر المعابد الخشبية الكثيرة الموجودة في بولندا ببنائها الخارجي الجريء وتصميماتها الداخلية – الزخارف الملونة والتصوير الرمزي والنقوش العبرية والنقوش الخشبية الفخمة- لقد كانت تشع قوة خاصة. لسوء الطالع، لا يمكن الإعجاب بهذه الأشياء في وقتنا الحالي سوى في الصور.

كان على النساء البقاء منفصلين عن الرجال في المعبد. فإما يجلسن على مستوى الأرض خلف حواجز حول الغرفة الداخلية التي يمكن النظر إليها من خلال كوة أو في رواق يفصلهم فيها عن الرجال أبواب شبكية.

في المدن الكبرى- إضافة إلى المعابد اليهودية ذات البناء المميز- كانت هناك خاصة عند الحسيديين غرف متنوعة للصلاة في الغرف الخلفية للمباني السكنية: عكست الشتيبل (غرفة الصلاة) فقر الجماعة اليهودية. غير أن الجو النفسي داخل تلك الغرف يمكن أن يكون احتفالياً ومحركاً للمشاعر مثله في ذلك مثل أكثر أماكن التجمع روعة. علاوة على ذلك، فلنكرر أن العبادة الدينية يمكن تأديتها في أي مكان يجتمع فيه عدد من الرجال لا يقل عن عشرة، المينيان (النصاب).

كانت تقود الجماعة اليهودية لجنة غالباً ما تواجد إلى جانبها مجلس. غالبا ما كانت هناك منافسة ضارية على المناصب القيادية في الجماعة اليهودية، خاصة بين اليهود الأرثوذوكس والحسيديين ويهوديي الإصلاح. كانت هذه المنافسة تصل إلى حد العنف في أحيان ليست بالقليلة. أدت التوترات الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية إلى استفحال هذه الصراعات. استطاعت الطبقة العليا الحاكمة أن تحتفظ بمكانتها السلطوية لوقت طويل. احتل المشرف على إغاثة الفقراء مكانة تلي في الأهمية مكانة قائد الجماعة اليهودية، البارناس. فكان المشرف على إغاثة الفقراء يجمع المال ويوزعه على الفقراء وينظم وجبات السبت لأفراد المجتمع المعوزين.

كان الحاخام هو المعلم والمرجعية الدينية في الجماعة اليهودية. لم تكن له مهام كهنوتية. فقد اختفى الكهنوت بعد تدمير الهيكل في أورشليم وإن كان أحفاد هذه الطائفة من اللاويين وكهنة هارون لازالت لديهم بعض الحقوق والواجبات. كان على الحاخام أن ينشر المعرفة بالتلمود في الجماعة اليهودية بإلقاء المحاضرات في المعبد اليهودي وإقامة المناقشات مع غيره من العلماء. علاوة على ذلك كان الحاخام ينصح المؤمنين بشأن الواجبات الدينية والقضايا الفقهية، كما كان يرأس المحكمة الحاخامية. كان يتلقى مبالغ مالية من الجماعة اليهودية. لم تكن هذه بالمشكلة طالما لم يلقي الشك بظلاله حول سلطته. كلما انجرفت الجماعة اليهودية إلى الانشقاق وتصارعت التوجهات المختلفة لليهودية مع بعضها البعض، علق منصب الحاخام بين الأطراف المتصارعة.

كان الحاخام يساعده *الشماش* وهو ما يماثل القندلفت في الكثير من مهامه. غالبا ما تحمل الأخير مهام الحزان أو قائد جوقة الترتيل الذي كان يوجه الطقوس الدينية العامة وهي مهمة تستدعي صفات خاصة لأن الطقوس كانت تستمر لمدد طويلة وفي الأعياد كانت

الطقوس المتعددة تقام الواحد تلو الآخر. إن كان الحزان مغنياً موهوبا، أحيانا ما كان فنه يقوده لإضفاء ثقل أكبر على الأداء أكثر من المغزى الديني. إضافة إلى المعلمين وأمناء السر والكتبة وما شابه ذلك من الموظفين في الجماعة اليهودية، كانت الجمعيات المختلفة ذات أهمية أيضا. كانت الهيفرا كاديشا أو "المجتمع المقدس" أخوية مسئولة عن مراسم الدفن. كانت هذه الأخوية ترعى المصابين بأمراض مميتة وتساعدهم على الاعتراف بخطاياهم وكانت تنفذ جميع الفروض الدينية المتعلقة بالوفاة وتتعاون مع المنظمات المسئولة عن مراسم الدفن. لم يكن بوسع أي حظر تصدره أية سلطات أن يمنع هذه المنظمة المستقلة من القيام بواجباتها.

إلى جانب هذا الكيان المبجل – الذي غالباً ما كان يشكل لب الجماعة الدينية – ربما كانت الجمعيات الخيرية الأكثر أهمية. كانت لهذه الجمعيات تقاليد عتيدة وكانت تتبع مجالس القهال التي كانت تقوم بتوجيه العمل الخيري. حتى بعد انهيار الوحدة الدينية بين اليهود كما يتضح من تعدد المعابد اليهودية والشتيبلن، كانت المسئوليات الاجتماعية هي المسئولية المشتركة للجماعة اليهودية كلها في مكان معين. كانت كثير من الأمور تتم بشكل يتسم بالخصوصية. في يوم السبت كان اليهود يستقبلون الضيوف . عندما كانوا يذهبون لصنع الخبز ليوم السبت، كان اليهود يلقون بالعملات المعدنية للفقراء في صناديق جمع الأموال الموضوعة لهذا الغرض. كان بعول طلبة اليشيفا المعدمين أسر موسرة أو كانوا على الأقل يستطيعون أن يتناولوا وجباتهم كل يوم مع أسرة مختلفة. كانت الجمعيات الخيرية تعول الأرامل والأيتام والمسنين والمرضى والمعوقين وكانت تقيم مطابخ لصناعة الحساء وتعتني بإعادة تأهيل المسجونين بعد إطلاق سراحهم. كان اليهود الفقراء يتلقون العون كي يستطيعوا الاحتفال في الأعياد الدينية. كانت تقدم للفتيات الفقيرات الملابس والمهور.

علاوة على ذلك، كانت الجمعيات تقدم يد العون في أوقات الشتاء القارص والمرض والطوارئ.

سريعا ما دفعت الزيادة السكانية السريعة في القرن التاسع عشر بالأعمال الخيرية في الجماعة اليهودية لأقصى حد. حين نشر مجلس القهال بمدينة وارسو آخر تقاريره عام ١٨٦٩ لم يرد أن يمنح ناقدي الأعمال الخيرية التقليدية الفرصة لإثارة هذه الجدل بأنفسهم. لقد اتضح أنه في المتوسط لم يكن متاحا سوى روبل واحد أو اثنين لكل شخص معوز. أصبح هذا الوضع أسوأ بشكل جلي عندما تم الإسراع بالتوجه إلى الصناعة. ما بين عامي ١٨٩٤ و ١٨٩٨ كان عدد هؤلاء الذين بحاجة إلى المساعدة في منطقة الاستيطان – بما فيها بولندا الخاضعة للامبراطورية الروسية– قد ازداد بمعدل الثلث. حوالي عام ١٩٠٠ كان متوسط نسبة الأسر المعوزة يقل بقليل عن ٢٠% . أما في المدن الكبرى فقد ارتفعت النسبة عن هذا بكثير.

في الصحافة اليهودية كانت تتردد المزيد من الأصوات التي تدين عدم كفاية نظام العمل الخيري. حتى الجهود المتزايدة للأفراد اليهود الأثرياء مثل بوزنانسكي في مدينة لودز فلم تتمكن من تغيير أي شيء. كان المطلب الرئيسي هو أن يبدأ المرء بالأسباب الكامنة وراء ذلك خاصة نسبة البطالة المرتفعة. أصبح من الضروري تحسين التعليم واستحداث مصادر جديدة للوظائف. جاء رد فعل الجمعيات– الهيفروت– سواء كانت تعاونية أو لا وغالبا أيضا ما كانت توصف بأنها أخويات– في شكل محاولة تنظيم المعونة المتبادلة ليتحول الأمر إلى مساعدة النفس بدلا من إمداد المساعدات الفردية وحسب. كونت الهيفروت (الجمعيات) الحسيدية البروليتارية النواة الأولى لحركة العمال من أهم هذه الجهود المبذولة إقامة المصارف الائتمانية التابعة للجمعيات التعاونية للحرفيين وصغار التجار. لقد طورت هذه المصارف إجراءات للتطوير الهيكلي للتجارة بشكل

خاص. كانت أهم هذه المنظمات جمعية تحسين الحرف اليدوية والزراعة بين اليهود في روسيا (ORT) . بيد أن كل هذه الجهود لم تزد عن كونها قطرات في محيط لأن الظروف المحيطة باليهود وخاصة الطبقات الدنيا من اليهود في بولندا لم تتحسن. بيد أنه من الواضح أن اليهود لم يلتزموا فقط بالطرق القديمة.

وصلت جهود الإغاثة في الحرب العالمية الأولى إلى ذروتها من خلال عدد من المنظمات المختلفة بما فيها اللجنة اليهودية لمساعدة ضحايا الحرب (EKOPO) . تدفقت التبرعات من الجماعة اليهودية بجميع مستوياتها وعلى وجه الخصوص من الأثرياء. غير انه كان هناك المزيد من الصراعات فيما يتعلق بتسييس الكثير من الجماعات المشاركة . إضافة إلى ذلك، تلقت المنظمات المعيلة الأموال من المؤسسات اليهودية بالخارج وحتى من الحكومة الروسية.

اليهود والبولنديون في جيتو بمدينة لودز
نساء يهوديات في طريقهن إلى المعبد اليهودي
حمالون يهود أمام مسرح المدينة بفلينوس
أسر يهودية عائدة إلى أوطانها

الصراعات المتزايدة مع العالم غير اليهودي

كان للعلاقات الاجتماعية المتغيرة والتغيرات الاقتصادية الاجتماعية الجذرية والتحولات الدينية والفكرية أثرها على الهوية اليهودية . في روايته "العقار"، كان لإسحاق سينجر تلميذ يهودي أدار ظهره للدين جاء على لسانه العبارات التالية:

اليهودي البولندي ... كان له في الماضي مكان حقيقي في المجتمع. قبل تحرير الأقنان (١٨٦٤ في بولندا– هـ. هـ.) كان يلعب دور الوسيط بين الإقطاعيين والفلاحين . أضحى هذا الدور الآن شيئًا من الماضي والآن أصبح (اليهودي) أكثر قليل من مجرد طفيلي. لم يكن منتجا ولم يتحدث اللغة الرسمية للبلاد التي يعيش بها

وكان يرسل أبناءه إلى الحيدر. "لكم من الوقت سيظل اليهودي يأخذ الحمام الطقسي ويتحرك مرتديا التسيت تسيت (الشراشف) ؟"

الاندماج مع البولنديين أو الترويس الذي كان الكثير من كبار رجال الأعمال والمفكرين يسعون إليه كان شيئا مستحيلاً لشخص مثل تلميذ سينجر حتى وإن كان سيؤدي إلى التغريب عن الطرق اليهودية التقليدية. لقد أتاح لهم المجتمع فرصا قليلة غير أن الاندماج فوق أي شيء آخر بدا – بسبب العداء المتزايد للسامية– غير ملائم وغير ممكن. المذابح في روسيا و أعمال الشغب المتفرقة في المدن البولندية (كتلك التي اندلعت في وارسو في ١٨٨١ وفي لودز في ١٨٩٢) الأحداث الكثيرة الصغيرة التي كانت تحدث بصفة متكررة كحملات المقاطعة لليهود (والألمان)– "كل يترك لشأنه" والمقالات الصحفية الناضحة بالتمييز ضد اليهود والملاحظات المهينة في الطرقات وفي حجرات الاستقبال كلها كان لها تأثير.

رغم أن الصلات الاقتصادية بين اليهود وغير اليهود كانت تتعمق نتيجة التوجه للصناعة فقد أصبحت الحدود الفاصلة بينهما في الوقت ذاته أكثر حدة. كانت توصف وارسو في هذا الوقت بأنها "مدينة الشعبين". وبالقياس، لا بد وأن لودز كانت تعد "مدينة الثلاث شعوب". في الحياة السياسية كذلك أصبحت الفروق أكثر جلاء. بالكاد يمكن ملاحظة هذا في انتخابات المجلس التي أقيمت عام ١٨٦١. كان يبدو أن اليهود والبولنديين سيعملون سويا ضد حكم القيصر. بيد أنه في انتخابات البرلمان الروسي– الدوما– في وارسو عام ١٩١٢ تصادم الحزب الوطني الديموقراطي البولندي (أكثر الأحزاب نزوعا إلى الوطنية حتى ذلك الوقت) مع اليهود صدامات عنيفة. تم تصوير "الخطر اليهودي" بصورة صارخة. عند انضمام عضو اشتراكي إلى البرلمان بمساعدة أصوات اليهود أثناء إجراءات الانتخاب المعقدة– وفي الوقت ذاته عندما كان يحظى يهودي بأغلبية

الأصوات في مدينة لودز- كان الاضطراب يخرج عن نطاق السيطرة تماما . نظم الحزب الوطني الديموقراطي مقاطعة اقتصادية لليهود . كانت الصراعات الآن تدور علانية.

الاشتراكية والصهيونية وهوية يهودية جديدة

أدت الشكوك التي انتابت الكثير من اليهود بخصوص مكانتهم في المجتمع إلى كره الذات والانتحار. بينما فضل الآخرون المعارضة الثورية وانضموا إلى الجماعات الاشتراكية. في روسيا في بواكير عام ١٨٧٦ حاولت جماعة يطلق عليها اسم نارودنيكي (حزب الشعب) بعد أن لحق الفشل بحركة "الذهاب إلى الشعب" قبل ذلك بعامين- أن يوسعوا من قاعدة مؤيديهم وأسسوا "جمعية اليهود في روسيا". نشط اليهود ايضا في الجماعات الثورية في السنوات التالية. غير أنه اتضح في أعقاب عام ١٨٨١ أن هذه الجماعات غالبا ما تبنت مواقف محتقرة للثقافة اليهودية حين رحبت بأعمال العنف التي جرت ضد اليهود بوصفها ثورة عفوية من الشعب ضد المستغلين اليهود. بدأت الضغوط تتزايد لحصول اليهود على قدر أكبر من الاستقلالية. حاول أولئك الذين كانوا إلى ذلك الحين يتقربون من الثقافة البولندية إدخال هذه الفكرة إلى المنظمات القومية كالحزب الاشتراكي البولندي الذي تأسس عام ١٨٩٢. لكن هنا أيضا سرعان ما بدأت الخلافات في الظهور بسبب الافتقار إلى احترام "للمسألة اليهودية" وبسبب الميول المعادية للسامية في بعض أقسام الحزب.

نتيجة لذلك، كانت الجماعات ذات الصبغة الدولية أكثر جذباً لليهود. فقد قدمت وعودا على أساس النظرية الماركسية بأن ثورة العالم لن تحل فقط الصراعات الطبقية، بل أيضا الصراعات القومية. بعد ظهور عدد من الرواد المهمين، كانت أهم الحركات الديموقراطية الاشتراكية في المملكة البولندية – الليتوانية (١٨٩٣، **SDKP**؛ من عام ١٩٠٠،الحزب الاشتراكي الديموقراطي بمملكة بولندا العظمى

SDKPIL، الحزب الاشتراكي الديموقراطي للمملكة البولندية – الليتوانية) ثم بعد ذلك الحركة الديموقراطية الأشتراكية الروسية (في عام ١٨٩٨، حزب العمال الديموقراطي الاشتراكي الروسي). تعطي أسماء مثل روزا لوكسمبورج (١٨٧١–١٩١٩) وجان تيسكا (ليو جوكيشيز، ١٨٦٧– ١٩١٩) ويولي أو تسيدرباوم (مارتوف، ١٨٧٣– ١٩٢٣) وبول أكسيلرود (١٨٥٠– ١٩٢٨) وليف برونشتاين (ليون تروتسكي، ١٨٧٩– ١٩٤٠) فكرة عن النفوذ الذي مارسه اليهود في هذا الصدد.

ازداد اليهود نفوذا من خلال الجمعيات التعاونية والرابطات المستقلة للعمال اليهود التي كانت قد ظهرت منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر في مملكة بولندا خاصة في وارسو وفي جاليشيا الحمراء. في عام ١٨٩٧ تشكل أخيرا الاتحاد العام للعمال اليهود في ليتوانيا وبولندا وروسيا والذي أطلق عليه "البوند" في مدينة فيلينوس. أصبحت مدينة فيلينوس مركزا للاشتراكية اليهودية: منذ عام ١٨٤٧ وحتى عام ١٨٧٣سمحت المدينة بتأسيس المعاهد اللاهوتية الحاخامية التقليدية؛ الأمر الذي كان من شأنه نشرالهاسكالاه (حركة التنوير اليهودية) وضمت بين طلابها فيما بعد بعض الاشتراكيين مثل هارون صاموئيل ليبرمان (١٨٤٥– ١٨٨٠) وهارون زوندليفيتش. كما كان بمدينة فيلينوس بروليتاريا يهودية. في عدد من الدوائر دارت المناقشات حول التعاون مع المنظمات غير اليهودية والمطالبة بحركة شعبية. بينما في البداية، في ظل روح التنوير والاندماج، كانت تجري حركات العمال باللغة العبرية أو الروسية، كان المقال الذي كتبه أركادي كريمر (١٨٦٥– ١٩٣٥) الصادر عام ١٨٩٣ "حول الاضطراب" نقطة فارقة في هذا الشأن: ينبغي أن يكون الشخص معتادا على الحياة اليومية ويهتم بالتجربة اليومية للناس (إلى الشوارع نحو الشعب) كما عبر عنها فالديميرميدين

(١٨٧٩– ١٩٢٣) أحد منظري اتحاد "البوند" في المستقبل. من ثمّ، كان من الضروري التواصل باستخدام اللغة اليديشية. بهذه الطريقة، ناهيك عن الصحافة اليدشية، تحول البوند إلى منظمة شعبية متفردة لا يمكن تقدير تأثيرها المتعدد الأوجه على حركات العمال الروسية والبولندية. جعل الثبات الذي تمتعت به البروليتاريا اليهودية من الاحتفاظ بصبغة الحزب الشعبي ممكناً، رغم حقيقة أن أنشطة القيادات البروليتارية كانت في عمومها غير قانونية. علاوة على ذلك، أسهم عمل البوند بشكل كبير في تشكيل صورة ذاتية جديدة لليهود في شرق اوروبا.

لم يتخذ القرار المنحاز لليديشية لأسباب تكتيكية وحسب. بين دعاة البوند، من أمثال ميشيل جولدمان (مارك ليبر، ١٨٨٠– ١٩٣٧) وويكتور ألتر (١٨٩٠– ١٩٤٣) وهنريك إلرش (وولف هيرش ١٨٨٢– ١٩٤٢) ،ارتبط التفكير الدولي الاشتراكي بقناعة أنه لا بد من منح التفرد الثقافي لليهود التقدير الكافي، ومن ثمّ كان من الحتمي تحقيق "الاستقلالية غيرالإقليمية" الثقافية لليهود. لذا طالب المؤتمر الرابع للبوند في مدينة بياليستوك عام ١٩٠١ بتحويل الامبراطورية الروسية إلى اتحاد فيدرالي بين القوميات المستقلة التي لا تتقيد بأية مقاطعة بعينها. رأى دعاة الوحدة – مثلهم في ذلك مثل الماركسية النمساوية– في هذه العضوية بجماعة قومية كبرى فرصة للحفاظ على الاختلافات الثقافية مع التغلب على القومية التي تهدف لتكوين مقاطعة خاصة بالمرء بنبذ غيره من القوميات الأخرى. وجدت هذه الفكرة الكثير من المؤيدين في كل من بين البروليتاريا اليهودية، التي غالبا ما عانت من المواقف المعادية للسامية على أيدي العمال والمفكرين من غير اليهود. بزغت فرصة للتعاون مع العمال الآخرين مع الاحتفاظ بالثقافة اليهودية، فرصة لتخطي الحدود القومية توطئة لتنحيتها جانبا في مجتمع المستقبل. يمكن تقدير أهمية

إسهام اليهود في الحركة العمالية إذا عرفنا أن عدد اليهود الذين سقطوا في الثكنات في مدينة لودز أثناء ثورة ١٩٠٥ كان أكثر من عدد الذين سقطوا من أعضاء اية جماعة أخرى.

رغم ذلك، تكشف أنه من الصعوبة بمكان التعاون مع هذه المنظمات المتداخلة. في البداية ارتبط البوند بالديموقراطية الاشتراكية الروسية. غير أنه في أحوال كثيرة أسيء فهم مطلبه بالحصول على استقلالية منظمية في ظل حزب قائم على الاتحاد الفيدرالي. في عام ١٩٠٣ حين فشل ممثلو البوند في تمرير هذه المسألة في المؤتمر الثاني لحزب العمال الديموقراطي الاشتراكي الروسي في لندن، انسحبوا من عضوية الحزب. نتيجة لذلك، أصبح الحزب المتعاطف مع أهدافهم حزب الأقلية وسارعت الجماعة المحيطة بلنين بالاستحواذ عليه. فيما بعد، أصبح الحزب يعرف باسم مينشيفيكي ["أصحاب الأقلية"]، بينما اختار الآخرون لهم اسم بولشيفيكي ["أصحاب الأغلبية"]. بعد ثورة عام ١٩٠٥، انضم البوند إلى حزب العمال الديموقراطي الاشتراكي الروسي وعمل فوق كل شيء مع المينشيفيك حتى بداية مرحلة جديدة تماما عام ١٩١٧.

كانت الصهيونية أحد بدائل الاشتراكية، وكانت أكثر من مجرد رد فعل قومي على التهديد القومي الذي تطرحه البيئة غير اليهودية. لمئات السنين- منذ تدمير الهيكل في أورشليم عام ٧٠ وما تبع ذلك من تشتت اليهود في جميع أنحاء العالم- ظل الشوق إلى صهيون؛ للعودة إلى أرض إسرائيل حيا. سيعطي الرب إشارة عندما يوشك المنفى على الانتهاء ويتمكن اليهود مرة أخرى من التجمع في إسرائيل. عندئذ، سيظهر المشياح ويأتي بالخلاص للبشرية كلها. بالنسبة لليهود المتدينين- ومنذ القرن الثامن عشر بالنسبة للحسيديين أيضا- كان حلم الحياة هو السفر ولو لمرة واحدة إلى الأرض المقدسة وإحضار حفنة من ترابها لتصحب المرء في القبر حين يحين الوقت.

لم يفكر اليهود في تكوين دولة يهودية خاصة بهم؛ بيد أنه لا ينبغي الوقوف أمام إرادة الرب.

بدأ هذا في التغير "بالتحول النشط" لليهود تجاه نهاية القرن الثامن عشر. أراد المزيد من اليهود الإسهام في تحقيق الخلاص بمواردهم الخاصة. في المجر، طالب الحاخامات الأرثوذوكسيون المتشددون مثل موسى شرايبر المعروف باسم هاتام سوفر "لقد رفع الكتاب" (١٧٦٣– ١٨٣٩) وأكيفا جوزيف شليسينجر (١٨٣٧– ١٩٢٢) الذي بالرجوع إلى التوراة، كان يرفض أي شيء جديد؛ طالبوا ألا ينظر إلى اليهود فقط كديانة ولكن كشعب أيضا وأنه يجب اتخاذ الاستعدادات اللازمة للعودة إلى إيريتز إسرائيل ("أرض إسرائيل"). بهذه الطريقة فقط يمكن الحلول دون اندماج اليهود – ومن ثمّ تفكك اليهود في نهايةٍ الأمر. وضع الحاخام جوزيف ناتونيك (١٨١٣– ١٨٩٢) برنامجا ملموسا منذ منتصف القرن التاسع عشر للتحرير القومي لليهود من خلال خلق دولة في فلسطين. لا يمكن للذهن أن يخطيء تأثير الحركة القومية المجربة لا يمكن أن يخطئها الذهن. بيد أن واعظ تورون الحاخام يهوذا بن سولومون هاي ألكالاي (١٧٩٨– ١٨٧٨) لم يشطح بأفكاره إلى هذا الحد. لقد نادى باستعمار فلسطين من خلال الهجرة المتزايدة ولم يكن لدى اليهود إلى ذلك الوقت فكرة إقامة دولة مستقلة.

من هنا نشأت جذور الصهيونية الدينية التي أرادت الحفاظ على وحدة اليهود ضد فقدان الدين والتحرر والاندماج وأملت في معونة الرب لو شرع اليهود أنفسهم في العودة إلى إسرائيل. تشكلت منظمة مناظرة للصهيونية تدعى "ميزراحي" في مدينة فيلينوس عام ١٩٠٢. في الوقت ذاته، قامت مؤسسات المناهضة الدينية للصهيونية. من وجهة نظر هذه المؤسسات، كان التبكير ببناء الدولة الإسرائيلية على يد حركة علمانية كالصهيونية تجديفا. لاحقا تبنى ممثلو المذهب

الأرثوذوكسي والتيارات الحسيدية هذا الرأي، واجتمعوا في مدينة كاتوفيش عام ١٩١٢ لتشكيل *أجوداس يسرائيل* ("اتحاد إسرائيل"). في فلسطين أثناء العشرينيات من القرن العشرين، تمتعت الجماعة الأرثوذوكسية المتشددة بزعامة تشايم جوزيف زوننينفيلد (١٨٤٩– ١٩٣٢) – الذي أتى من المجر واعتبر نفسه خليفة حاتام سوفير– بنفوذ متزايد. بينما عقد "اتحاد إسرائيل" سلاما مع الجهود الصهيونية بعد الشوه (الهولوكوست)، كان الأرثوذوكس المتشددون الذين تركوا تلك المنظمات لا يزالون يرفضون دولة إسرائيل ويعتبرون الصهيونية خطرا قاتلاً على اليهود.

من المصادر الأخرى للصهيونية الهاسكالاه التي ظهرت – مثل التحول إلى الاشتراكية– مما يطلق عليه اسم "التحول النشط". أدى إحباط الآمال في أن تسير حركة التنوير يداً بيد مع التحرر واندماج اليهود بالمجتمع بالكثير من المسكاليم إلى العودة الروحية إلى اليهودية وإلى الاعتقاد بأنه لا حل للمشكلة سوى من خارج يهود الشتات. في عام ١٨٥٢ قام أبراهام مابو (١٨٠٧– ١٨٦٧) – في الأصل معلم من كوفنو (كوناس) بليتوانيا– بنشر روايته *"أهافات تسيون"* (١٨٥٢، "حب صهيون"؛ المنشورة باللغة الإنجليزية تحت عنوان "أنو: الأمير والفلاح") باللغة العبرية. بنى مابو روايته على موتيفات من الكتاب المقدس وبمعالجة تدرّس في التقنية الروائية المعاصرة، خلق مابو صورة مثالية لإسرائيل؛ الأمر الذي عبر عن رغبة يوتوبية في إقامة مملكة للسلام– لها السمات الملموسة لمجتمع الريفي يتمتع بالعدالة الاجتماعية وحق المرأة في تقرير المصير. لاقت الرواية نجاحا هائلاً ومهدت الطريق لإحياء الفكرة الصهيونية. الآن كان الكثير من الكتاب يروجون لفكرة خلق دولة في فلسطين.

كانت المعاداة للسامية التي اتسمت بالعنف وأخيراً أعمال العنف التي اندلعت في الامبراطورية الروسية حافزا لتحويل الأفكار والخطط

إلى أفعال. منذ عام ١٨٨١ تشكلت مجموعات صغيرة من الهوفيفي تسيون ("أحباء صهيون") الذين ربطوا اسمهم بحركة هيبات تسيون ("حب صهيون"). حاولت أول منظمة طلابية ،البيلويم، التي أطلق عليها هذا الاسم المكون من الحروف الأولى لمقولة من كتاب إشعيا: "يَا بَيْتَ يَعْقُوبَ، هَلُمَّ فَنَسْلُكُ فِي نُورِ الرَّبِّ" (إشعياء إصحاح ٢ : آية ٥)، أن تحرك عملية الهجرة إلى إريتز يسرائيل (أرض إسرائيل). كانت النجاحات الأولى التي شهدها "الإليا" أو "الصاعدون" الأول إلى صهيون محدودة. غير أن الرغبة في "التحرر الذاتي" كما عبر عنها ليو (يهوذا ليب) بينسكر (١٨٢١– ١٨٩١) ابن مدينة أوديسا في كتابه الذي يحمل نفس الاسم والذي نشر عام ١٨٨٢ أصبحت أقوى بين يهود شرق أوروبا. لقد أجبروا على التوصل لنتيجة مفادها أنه لا يمكن توقع التحرر "من الخارج" في المستقبل القريب وبدا أن الأمر مهينا بشكل متزايد ولا يستحق الانتظار على أمل أن يُمنح المرء ما يريده، خاصة حين لم يكن المجتمع غير اليهودي نفسه متحررا.

لعب بينسكر دوراً رئيسياً في حركة حيبات تسيون (حب صهيون) التي قامت بتنظيم عدة مؤتمرات بدأت في كاتويس عام ١٨٨٤ ، غير أنها سريعا ما وجدت نفسها غارقة في المصاعب. فقد تعارك المشاركون الدينيون والعلمانيون وكانت الهجرة إلى فلسطين تتقدم ببطء شديد وسريعا ما شهدت المستوطنات هناك أزمة خطيرة. فقد سافر أحد هاآم ("واحد من الناس"؛ في واقع الأمر أشير جينزبيرج [١٨٥٦– ١٩٢٧] المولود في سكفيرا بالقرب من كييف في الامبراطورية الروسية [الآن في أوكرانيا]) إلى فلسطين وفيما بعد انتقد الاستعمار كنهج خاطيء. لم يكن من الممكن بناء الدولة في الوقت الحاضر. بدلاً من ذلك، تبنى جينزبيرج الرأي القائل بأنه من الأفضل التركيز على عدد من المستوطنات ومحاولة تحويل

فلسطين أولاً إلى مركز روحي يهودي تقوم منه نهضة للشعب اليهودي في الدياسبورا. مثل الكثيرين غيره من يهود شرق أوروبا شدد جينزبيرج بشكل خاص على الاستقلالية الثقافية التي يتعين تجديدها. أصبح أحد هاآم أحد مؤسسي "الصهيونية الثقافية" التي قدر لها أن تصبح بديلاً مميزاً "للصهيونية السياسية". بعد أن أدخل مارتن بوبر (١٨٧٨– ١٩٦٥) وغيره من الشخصيات الهامة على الصهيونية الثقافية المزيد من التطورات، شددت الصهيونية الثقافية– فوق كل شيء بالإشارة إلى جذور يهود شرق أوروبا– على "اليهودية" وربطت بين تدبر المرء لثقافته الخاصة واعترافه بالآخرين. لذا، نادت الصهيونية الثقافية بالتوصل إلى حل وسط مع العرب في فلسطين.

ربط ناثان بيرنباوم (١٨٦٤– ١٩٣٧) من فيينا بين المنحيين الثقافي والسياسي. وقد ناشد– تحت تأثير تعرفه إلى الثقافة اليهودية شرق الأوروبية – اليهود بأن يعثروا على الوعي الذاتي اليهودي الخاص بهم. منذ عام ١٨٨٥، قام بيرنباوم بنشر مجلة دورية بعنوان "تحرير الذات" ونحت مصطلح "الصهيونية" ليميز الحركة الجديدة عن غيرها من الجهود الوطنية اليهودية والخيرية المحضة، ولتحقيق هدف وحدة جديدة للشعب اليهودي. غير أن محاولته للجمع بين الميول المختلفة لم تتعد مجرد التحضير لاجتماع انعقد عام ١٨٩٤.

رغم أن هؤلاء أعدوا الساحة لاستقبال الأفكار الجديدة، فقد بدأت المحاولات لتشكيل حركة وطنية ترجع أصولها إلى أوروبا الشرقية في الفتور حين قام تيودور هيرتزل (١٨٦٠– ١٩٠٤) – المنحدر من أسرة مندمجة من بودابست وكان يعيش في فيينا– بإحداث طفرة بكتيبه (الدولة اليهودية، ١٨٩٦). جهلاً بالمؤلفات الصهيونية السابقة ودون طرح أية أفكار جديدة في الواقع، عثر هيرتزيل على الوتر الذي يمكن من خلال الضرب عليه إقناع الكثير

من اليهود أن حل "المسألة اليهودية" قد تم التوصل إليه. في المؤتمر الصهيوني الأول ببازل، تم تأسيس المنظمة الصهيونية وتم التصديق على "برنامج بازل". نص هذا البرنامج على أن "الصهيونية تسعى لتخلق للشعب اليهودي في فلسطين وطنا يحميه القانون العام". الآن، ظهرت الجمعيات الصهيونية في جميع أنحاء العالم، غم أن الصهيونية لم يكن يدعمها سوى أقلية من اليهود.

لم يكن من قبيل الصدفة أن المنظمة الصهيونية والبوند تم تأسيسهما في العام ذاته. فكلا التوجهين تأصل في ظل الأزمة التي واجهت فهم اليهودي لذاته في القرن التاسع عشر، وكلاهما توصل إلى نتائج جذرية بدافع الحاجة للتوصل إلى إجابات جديدة على تحديات العصر، ونبوعا من القناعة بأن هذا يمكنه أن يتحقق فقط من خلال المشاركة الفعالة في الجهود إما لتحسين الظروف أو للتوصل إلى حل. كانت إجابة كل من الاشتراكية والصهيونية أن المشياح لم يأت بعد، غير أن أزمة اليهود كانت تتطلب علاجا سريعا: كلاهما كان رد فعل على الاتجاه للعلمانية والتسامح والتحرر والليبرالية والوطنية والمعاداة للسامية والتوجه للصناعة والفقر وتغير نمط الحياة اليومية. كلاهما كان قائما على التقليد اليهودي وتضمن عناصر من المشيحانية غير أنهما أيضا أدخلا شيئا جديدا تماما على التاريخ اليهودي.

جعلت نقطة الانطلاق المشتركة هذه – رغم كل الاختلافات فيما يتصل بالأهداف والوسائل– التعاون بين هذين البديلين، اللذين يقفان على طرفي النقيض حول قضايا معينة، ممكنا. مكن من هذا أيضا حقيقة أنه سريعا ما ظهر صدع في الصهيونية بين يهود شرق أوروبا ويهود غرب اوروبا (ويست يودن وإيست يودن). في المؤتمر الأول، بدت الوحدة وكأنها ممنوحة لهم، حتى أن زعيم الجناح الديني في حركة هوفيفي تسيون (أحباء صهيون) وحاخام مدينة بياليستوك صامويل موهيليور (١٨٢٤– ١٨٩٩) بعث إليهم بكلمة للتحية

وإعلان الموافقة. لكن بينما كان للكثير من يهود شرق أوروبا تأثير على الصهيونية- وعلى راسهم هيرتيزيل- فقد اعتبروا أن العمل السياسي أولوية بما فيه المفاوضات الدبلوماسية و حيازة أراض، وإن حالفهم الحظ حيازة دولة كاملة، لم يتعين أن تكون فلسطين. وفقا للقانون الدولي، كان لمعظم يهود شرق أوروبا في الحركة الجديدة أولويات أخرى مثل تقديم المساعدة السريعة للفقراء وهؤلاء الذين يتهددهم خطر اتخاذ إجراءات فعلية ضدهم وفوق كل هذا الاستيطان في فلسطين؛ الأمر الذي من شأنه تهيئة الطريق لإقامة نظام اجتماعي عادل في المستقبل. يمكن العثور هنا على أصول الكيبوتس (تجمع سكاني تعاوني يضم جماعةٍ من المزارعين أو العمال اليهود) . اعتبر هذا جزءا أساسيا مكونا لعملية الإحياء الثقافي لليهود. كان من الممكن- بالنسبة لهم -أن يكون مركز هذه النهضة والمستوطنات فقط إيريتز إسرائيل. غير أنهم في الوقت ذاته اعتبروا "العمل الحالي " في البلاد التي قطنوها ضروريا ويقصد بهذا تحسين وضع اليهود إلى أن يعترف بهم كأقلية قومية مستقلة. غالبا ما أدى هذا إلى نشوء الصراعات في المنظمة الصهيونية خاصة لأن الكثير من يهود شرق أوروربا نظروا بامتهان إلى الأوست يودن "المتخلفين". لكن الحاجة المادية إلى اليهود كانت قد وصلت إلى الذروة في الشرق؛ مما جعل البعض يرغب في مد يد العون لهم وعلى أي حال لقد كانوا بحاجة إليهم، فرغم كل شيء عاشت أغلبية اليهود هناك. في نهاية الصراع الدائر حول "خطة أوغندا" ما بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٠٥، كانت الغلبة للصهاينة الشرق أوروبيين. فقد أصروا على جعل فلسطين الميدان الأوحد لنشاط الحركة الصهيونية. وقد اقترح المتحدث الرسمي باسم الجماعات الصهيونية الروسية ميناخيم أوسيشكين (١٨٦٣- ١٩٤١) ضرورة الجمع بين الميلين – "السياسي" و"العملي"- في صهيونية "مركبة". لقد أصبح هذا

الاتجاه- الذي مثّله شاييم وايزمان (١٨٧٤- ١٩٥٢) منذ حكم البينسك- الاتجاه السائد في الصهيونية.

كان موقف الجماعات الصهيونية الشرق أوروبية يهدف إلى تحقيق أشكال عديدة من التعاون مع الجماعات الأخرى، خاصة فيما يتعلق بالصهيونية الاشتراكية. منذ عام ١٩٠١، بدأت تتشكل في أوروبا الشرقية بوالو تسيون ("عمال صهيون")، ثم تأسس حزب لها عام ١٩٠٦. كان أهم منظري هذه الحركة الماركسي بير بوروهوف (١٨٨١- ١٩١٧) الذي اشترك في جدل مع الاشتراكيين اليهود غير المنتمين للجماعات الصهيونية الذين اعتبروا الصهيونية نوعا من أنواع القومية البرجوازية، حتى أن اليهود عندما يكافحون من أجل تحسين أحوالهم الاجتماعية في الدياسبورا احتاجوا إلى صهيون كمقاطعة يمكن أن يدور فيها الصراع الطبقي دون أية عوائق. كان من المتوقع أن تكون البروليتاريا العربية حليفاً للعمال اليهود في هذا الصدد. في فلسطين، تمتع ديفيد جرون المعروف باسم بن جوريون (من بلونسكي، ١٨٨٦- ١٩٧٣) بنفوذ كبير. ناضل بن جوريون ضد النزعات الماركسية والمائلة للصراع الطبقي. كان الأكثر نشاطا في هذا الصدد الجماعات الصهيونية والاشتراكيون المعتدلون تحت زعامة ناحمان سيركين (١٨٦٨- ١٩٢٤) الذين لم يكونوا ملتزمين بفلسطين كغاية أخيرة. تأسس حزب العمال الاشتراكي اليهودي متأثرا على نحو أقل بالماركسية والديموقراطية الاشتراكية ومتأثرا بشكل أكبر بالثوريين الاشتراكيين الروس. لقد طالب بإيجاد حل "للمسألة القومية" في الدياسبورا من خلال الاستقلالية بالأرض، وأراد تجديد منظمات الإدارة الذاتية- من مجالس القهال وحتى البرلمان اليهودي أو "سييم"- لهذا السبب كانوا يعرفون أيضا باسم "السييميين". لقد مثل الصهيونيون الاشتراكيون بالتأكيد المنافسة الهامة من أجل تحقيق البوند وكانت علاقات النفوذ الإقليمية غاية في

الاختلاف. غير انه كان هناك غالباً تعاون فيما يتعلق بالقضايا الأساسية التي كان هدفها تحسين وضع البروليتاريا اليهودية.

شاركت الجماعات الصهيونية والاشتراكية في ثورة عام ١٩٠٥ضد مقاومة اليهود الأرثوذوكس التي لم تصمد في ظل الانغماس في السياسة. بينما ظهر إلى حيز الوجود نوع من المنظمات المظلية التي لها ميول مختلفة غالبا ليبرالية قاطعها الاتحاد اليهودي في شكل جمعية لتحقيق الحقوق المتساوية للشعب اليهودي في روسيا. في البداية ناضلت هذه الجمعية من أجل اكتساب حقوق الانتخاب لليهود. غير أنه بالتدريج ظهرت على الساحة المزيد من المطالب للاستقلال القومي وجمعية قومية من اليهود فقط. هذا كان يذكر بالفاد في بواكير الفترة الحديثة. رغم أن الجمعية كانت تؤيد الأهداف القومية للبولنديين، حمل الديموقراطيون الوطنيون البولنديون شعار: "البولنديون في خطر! اليهود قادمون!" بعد انتخاب أول برلمان امبراطوري (الدوما) في عام ١٩٠٦، البرلمان الروسي الجديد، حدث انشقاق داخل المنظمة.

تعاون الكثير من الأعضاء مع أحزاب سياسية، بما فيها أحزاب لم تكن يهودية على وجه الخصوص. رغم هذا، ازداد الوعي بأن لجميع اليهود مصالح سياسية مشتركة. تأثر الصهيونيون بشكل كبير بأفكار برنامج الجمعية التي كان أحد أنشط سياسيها الشخصية التاريخية سايمون دبنوف (١٨٦٠– ١٩٤١) الذي قام بتأسيس حزب الشعب اليهودي عام ١٩٠٦. عبر هذا الحزب بشكل جلي عن مطلب تحقيق السيادة القومية والاعتراف باليهود كأقلية قومية في البلد التي يريدون العيش بها. بدءا من التسعينيات في القرن التاسع عشر، مثل دوبنوف الرأي القائل بأن اليهود يمثلون أمة تاريخية ثقافية حتى في المنفى، وبالتالي يمكنهم المطالبة بحقوق شعب.

في المجمل، تمت التعبئة السياسية للكثير من اليهود- حتى وإن لم يشترك الكثير من الحسيديين في الانتخابات لأنهم لم يروها تتلاءم مع نمط حياتهم الديني التقليدي. كانت الحركة النشطة لتكون استجابة أكثر ملاءمة للظروف الاجتماعية الراهنة عن الحج التقليدي للناس من الشتيتل أو الأرض الخاضعة للانتداب. أبقى منصب سياسي استحدث عام ١٩١٢ على الصلة مع النواب اليهود في الدوما مما أثبت فاعليته بصورة كبيرة، بينما قام مكتب الاستعلامات التابع له بجمع وثائق حول وضع اليهود في الامبراطورية الروسية. أصبح هذا في غاية الأهمية في الحرب العالمية الأولى حين جرى هناك الكثير من أعمال الشغب ضد اليهود وانتشر مناخ معاد للسامية. كانت مثل هذه التقارير هي التي مكنت نواب الدوما من تقديم بيانات للسلطات أو لطرح الأسئلة على مجلس الوزراء من أجل الحصول على مساعدة جزئية على الأقل.

رغم أن الاشتراكية والقومية اليهودية والصهيونية تبدو معادية للدين للوهلة الأولى، كان هناك أيضا عودة إلى الاستبطانية.

لأنه مهما كانت الحاجة ماسة، يأتي المستقبل بأروع أشكال الخلاص. الجبن البادي لليهود الذين لا يظهرون رد فعل على حجر يلقي به فتى عابث لا يستمع إلى كلمات السباب هو في حقيقة الأمر كبرياء شخص يعلم أنه في يوم ما سيحالفه النصر وأنه لا يمكن أن يحدث له شيء إن لم تكن تلك إرادة الرب وأنه لا يمكن أن يكون هناك حماية أروع من إرادة الرب.[٩٧]

يمكن أن يأخذ التدبر في الاستبطانية شكل التقوى الزاهدة المتقشفة أو الالتجاء الناسك إلى الحسيدية. رغم ذلك في الوقت ذاته تنامت القوى التي كانت على وعي بالثقافة الشعبية اليهودية

[٩٧] روث، يهود التيه، ص. ٣٠٨ بالكامل.

المميزة والعناصر التحريرية للحسيدية. تعالت نبرة الافتخار "باليهودية" والتقاليد والقيم بشدة.

من بين هذه الاتجاهات المتباينة، ظهرت حركة جديدة- لم تدرس بعد من جميع مناحيها المتعددة- تدعو إلى قومية خاصة بيهود شرق أوروبا؛ طالبت هذه الحركة بالحكم الذاتي لليهود مما اثار حفيظة القوميين البولنديين والمحافظين الروس. امتدت يد النهضة إلى اللغة اليديشية. في عام ١٩٠٨، أقيم مؤتمر لغة مدينة تشيرنوفيتش؛ نظم هذا المؤتمر ناثان بيرنباوم الذي في الوقت ذاته أدار ظهره للصهيونية. عن وعي، اعتبر عدد كبير من الكتاب والدراميين والمؤرخين وعلماء الاجتماع والصحفيين ناهيك عن العمال وصغار التجار- ولو من منطلق وجهات نظر سياسية متباينة- أنهم أوست يودن (يهود شرق أوروبيين)، ووجدوا هويتهم في غمار التصنيع والتوجه للمدنية وأنماط الحياة الجديدة. ما كان ينكره أغلب اليهود في الغرب- أنهم كانوا أمة- شعر به في بولندا وروسيا عدد متزايد من اليهود وعبروا عنه بشكل واع أيضا.

رغم التدهور النسبي في العلاقات بين اليهود وغير اليهود، ورغم التوجهات المتزايدة المعادية للسامية والفصل القومي، رغم كل ذلك لم يكن حل المسألة اليهودية مستحيلاً. قام الوعي المتزايد بتمتع اليهود- الذين لم يكونوا بالقطع موحدين على الصعيد السياسي حتى في أوقات الانتخابات- بقومية وثقافة مختلفتين بإحياء إمكانية تحقيق التعايش الاجتماعي بمعنى أنه يجب أن يخلو مفهوم التحرر من مبدأ الحكم الذاتي وأن يتضمن مبدأ الاندماج التام مع الأمة التي يعيش اليهود بين ظهرانيها. لأول مرة تمكن يهود شرق أوروبا من تصور طريقة تمكنهم من التعايش مع غيرهم من الأمم كأمة و"شخصية ثقافية" بحكم حقهم الشخصي وعلى قدم المساواة. من اليقيني أن هذا الأمر كان أكثر قسوة على اليهود، غير أنه ربما يكون محبذا

بشكل أكبر في نهاية الأمر. بهذه الطريقة، كان من الممكن ظهور شكل جديد من أشكال وظيفة الوسيط إلى حيز الوجود. زاد المعاصرون من احتمالية الوساطة الثقافية بسبب تحدث أغلب اليهود لعدة لغات. لسوء الحظ لم يثبت إمكانية تحقيق هذا الحل على أرض الواقع.

\الهجرة كمحاولة للعثور على وطن جديد

كانت أعمال العنف والظلم، التي وقعت على اليهود منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر، القشة الأخيرة للكثير من اليهود الذين قرروا الآن أن يهاجروا. فقد شعروا بعدم الجدوى بسبب فقرهم المتزايد وأيضا عدم رضاهم عن تركيب المجتمع وردود الفعل على مشكلات العصر. أرادوا ان يتخلصوا من "قيود الجيتو" وأن يبنوا حياة جديدة في مكان آخر. لذا عبّرت الهجرة أيضا عن الكارثة العامة التي أثرت على كيفية نظرة اليهود لأنفسهم. بين التسعينيات من القرن التاسع عشر والحرب العالمية الأولى، رحل ما يربو على مليون يهودي عن الإمبراطورية الروسية. كان أغلب هؤلاء من الحرفيين المدقعين في الفقر والعمال المهرة والتجار والباعة الذين شعروا أنه بوسعهم الخروج سالمين من العاصفة. لم تتحقق أحلام المهاجرين على الدوام. لذا اضطر عدد لا بأس به بعد نهاية القرن – وفقا لعدد من التقديرات المختلف حولها بلغت نسبتهم ما بين ١٥ و٢٠%– إلى العودة لأوطانهم القديمة. "عاد الكثيرون والآخرون لا زالوا في الطريق. ليس لدى يهوديي شرق أوروبا وطن بأي مكان، بل قبور في كل المدافن."[٩٨]

ارتحل المهاجرون إلى جميع أنحاء العالم. اختار البعض فلسطين لتحقيق الحلم الديني بالرجوع على الأقل ولو لمرة واحدة إلى أرض

[٩٨] روث، يهود التيه، ص. ٢٩٨.

الآباء. اتبع الكثيرون الأفكار الصهيونية. علاوة على ذلك، اعتبرت الكثير من الدول في أوروبا وغيرها من القارات- على سبيل المثال في أمريكا اللاتينية- أنها مجرد محطة انتقالية حين جوبهوا بتدفق يهود شرق أوروبا إليهم. لم يكن الاستقبال بأي حال من الأحوال يتمتع بالحفاوة على الدوام. كانت غرابة نمط حياة يهود شرق أوروبا- ناهيك عنهم في ألمانيا وسويسرا وبريطانيا العظمى- توضح الأفكار السائدة عن اليهود القذرين الجشعين الذين كانوا "شياطين جنس" ومجرمين. في بريطانيا العظمى، ارتبطت هها الطريقة في التفكير بشكل أساسي بالوظائف الاجتماعية والاقتصادية للمهاجرين اليهود؛ بينما في ألمانيا عادت الثقافة التقليدية المتأصلة المعادية لليهود إلى الظهور. حتى اليهود المقيمون في هذه البلاد لفترات طويلة سابقة على هذه الهجرات لم يبدوا في البداية رد فعل متحمس لأنهم خشوا- ولهم في ذلك بعض الحق- أن يتم تعميم الصورة السلبية ليهود شرق أوروبا على جميع اليهود وهذا من شأنه تهديد وضعهم في هذه المجتمعات. لكن تدريجيا ساندت أغلبية اليهود الأوست بودن واستغرق هذا الأمر فترة امتدت إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. بشكل متزايد بدأ الاعتراف بالأوست بودن كجزء من المجتمع اليهودي عامة، جزء يحمل الثقافة والقيم الخاصة باليهود.

اتجه أكبر عدد من المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ما بين عامي ١٨٨١ و١٩١٤، هاجر ما يربو على مليوني يهودي إلى هناك، ولم يتوقف هذا التدفق بعد. لقد حولت الإبادة العرقية التي كانت تجابه اليهود محور الحياة اليهودية إلى الولايات المتحدة بصورة شبه كاملة. في عام ١٩٨٦ عاش ٤٤% من الشعب اليهودي بالعالم بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يمثل ٢.٤% من إجمالي السكان، مقابل ٢٧.٥% فقط من اليهود في إسرائيل. قابل اليهود المهاجرون من شرق أوروبا اليهود المقيمين من فترات طويلة

بهذه البلاد– ومعظمهم من أصول ألمانية إلى جانب عدد ضئيل من يهود السفارديم الذين أتوا إلى أمريكا الشمالية مع "البيض" الأول. نظر كلا الفريقين بشيء من الاحتقار إلى اليهود الجدد – الذين كانوا كقاعدة عامة أدنى منهم بكثير من حيث الوضع الاجتماعي وكانت لهم تقاليد دينية وثقافية مغايرة. كانوا "أجانب" بالنسبة لهم. غير أن هذه الثقافة ذاتها هي التي منحت يهود شرق أوروبا الثقة بالنفس. لقد نظروا إلى اليهود الأمريكيين كمن هجروا "اليهودية" الحقة. كان من الحتمي نشوب الصراعات. غير أنه سريعا ما بدأ يطغى على الاختلافات نوع من التضامن مع المعوزين في خضم الجهود المشتركة لإظهار اليهود بصورة إيجابية في المجتمع.

بعد العداء الذي جوبهوا به في أوروبا، تمكن يهود شرق أوروبا في الولايات المتحدة الأمريكية من تنفس الصعداء. لم يكن هناك في الحقيقة تفرقة أمام القانون، وتمكن معظم المهاجرين من الحصول على الجنسية الأمريكية بسرعة. حتى أنه لم يكن هناك عداء للسامية بصورة كبيرة، على الأقل ليس للوهلة الأولى، غير أن هذا العداء كان يظهر للعيان حين يبحث اليهودي مثلاً عن وظيفة أو يريد الانضمام إلى عضوية ناد راق. ربما خفف من وطأة هذا الأمر تنوع المذاهب الدينية وميل الكثير من البروتستانت إلى يهود االعهد القديم؛ الأمر الذي تطور ليتخذ شكل "الصهيونية المسيحية"– التي تقوم على الاعتقاد بأن المشياح سيأتي بالخلاص حين يتحول عدد معين من اليهود إلى الديانة المسيحية أو على الأقل يعودون إلى إسرائيل. بعد الحرب العالميةِ الأولى وثورة أكتوبر في روسيا، أصبحت المعاداة للسامية جهارا لأن الحقد على والكراهية للرأسماليين اليهود اجتمعا مع الخوف من الثوريين اليهود. ليس فقط الكوكلاكس كلان ولكن حتى ملك صناعة السيارات هنري فورد قام بتوزيع بروتوكولات حكام صهيون– وهو تقرير زائف عن سلسلة من الاجتماعات

لممثليمن عن اليهود من جميع أرجاء العالم يُزعم انه أقيم في بازل بسويسرا ناقشت خطة ليسود اليهود العالم. أدت هذه المعاداة للسامية من ضمن ما أدت إلى فرض قيود على هجرة اليهود إلى البلاد ما بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٤ ولم ترفع هذه القيود سوى بعد الحرب العالمية الثانية. لقد تم قصر الهجرة الآن على نسبة ثابتة من أعداد كل قومية مقيمة بالفعل في الولايات المتحدة. لم يُنظر إلى اليهود باعتبارهم قومية منفصلة لذا تم احتسابهم مواطنين للدولة التي أتوا منها. أثناء فترة النازي، عوّقت هذه القوانين انقاذ الكثير من اليهود من بين براثن الاموت.

رغم كل هذه العوائق والمثالب، مكنت الظروف في الولايات المتحدة الأمريكية معظم يهود شرق أوروبا من ارتقاء السلم الاجتماعي. وجد الجيل الأول وظائف في صناعة النسيج وتجارة التجزئة برواتب منخفضة وظروف عمل بشعة. غالبا ما كان يهود الجيل الثاني قادرين على فتح مشاريعهم الخاصة الأكبر حجماً أو الحصول على وظائف أفضل كموظفين برواتب ثابتة. في الثلاثينيات من القرن العشرين لم توظف سوى الأقليات كعمال أو موظفين برواتب ثابتة. يتضح التغيير الهائل الذي حدث منذ ذلك الوقت حين نعلم أن في نيويورك الآن نسب غير متكافئة من المحامين والقضاة وأطباء الأسنان والأطباء لهم أصول ترجع إلى يهود شرق أوروبا.

بالتوازي مع كل هذا، بدأ مجتمع اليهود المهاجرين المتأملين داخلهم في الانفتاح على الآخرين: على سبيل المثال ترك الكثير من الرحالة من الطبقات العليا الجانب الشرقي المتواضع بمنهاتن إلى المناطق الراقية في الضواحي. بيد أن تماسك جماعة اليهود شرق الأوروبيين كان مثيراً للدهشة. فرغم كل آمالهم، ظل العالم الجديد بيئة غريبة لمدة طويلة. شوليم أليشيم، على سبيل المثال، الذي توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٦ثم توجه إليها مرة ثانية خلال الحرب العالمية

الأولى قدم وصفاً خالداً للصعاب التي تجابه عملية التأقلم هناك، كما كتب شالوم آش أيضا عن هذا الأمر. من ثمّ، ليس من المدهش ان المهاجرين انضموا إلى لاندسمانشافتين (جمعيات الرعاية الاجتماعية والثقافية لمن هم من نفس المكان) وفيها يتلقى (الوافدون الجدد) تعليمات من جماعة *الجيلين* الآتية من نفس المنطقة ومن خلالها يمكن الحفاظ على الاتصال بوطنهم الأم. أسهمت الجمعيات الإقليمية بهذه الطريقة في الحفاظ على الثقافة اليهودية شرق الأوروبية.

من المؤكد أن الكثير من المهاجرين أرادوا الهروب من سجن الجيتو والثورة ضد القوانين الدينية التي لم يعودوا يجدوها ملزمة والإطاحة بحكم الأوليغاركية من الجماعة الموسرة المتحاملة على الفقراء. تسبب الخوف من ضياع العقيدة ومتابعة التعليم الديني في الولايات المتحدة في أن يحذر الكثير من الحاخامات من الهجرة. في الفترة التي تزامنت مع الحرب، قدم حاخام مدينة مونكاكس (موكاشيفو) تشاييم إليعازر شبيرا (شابيراء ١٨٧٢– ١٩٣٧) والذي كان في ذاك الوقت المعارض الأكثر تصميما للصهيونية بين الحاخامات الحسيدية – وصفا للبوابات الثلاثة للجحيم بأنها: " الافتقار إلى العقيدة بين الكثير من العناصر اليهودية الأوروبية، والعبودية المطلقة للمال في أمريكا، والصهيونية التي كانت تسود في أورشليم!"[٣] كانت أمريكا أضخم هذه المخاطر. في الواقع اختار الكثيرون سبيل الاندماج التام.

رغم ذلك، ظلت الغالبية متشبثين "بيهوديتهم". حتى مع تعاطف عدد كبير من يهود شرق أوروبا المهاجرين مع الاشتراكية ولاحقا مع الصهيونية، فقد استمسكوا على الأقل ببعض عاداتهم التقليدية وكانوا في الغالب يتحدثون اللغة اليدشية كما ارتادوا المسارح والملاهي الليلية اليديشية وقرأوا الصحف اليديشية واستأجروا فرق الكليزمير في أفراحهم وأعياد البوريم وغيرها من الاحتفالات بما فيها

مهام الجمعيات الإقليمية. أعيدت ولادة الشتيتل اليهودي الشرق أوروبي في الكثير من مدن الولايات المتحدة الأمريكية.

بالطبع، برزت تناقضات في الصورة الذاتية الجديدة لليهود. ظهرت مشكلات التأقلم من خلال تفكك الكثير من الأسر- لم يكن من قبيل الصدفة أن تلعب اليديشية مام (الأم اليديشية) دوراً ذا أهميةٍ خاصة في التماسك والترابطِ الأسري. ظهرتن هذه التناقضات أيضا في المعدلات المرتفعة نسبيا للجريمة – أي الدعارة والمقامرة والاحتيال والعصابات الإجرامية وحتى الاشتراك في المنظمات الإجرامية الشهيرة في العشرينيات من القرن العشرين بصفة عامة غير أن الجريمة العنيفة كانت أقل انتشارا بين اليهود.

على الصعيد السياسي كان غالبية المهاجرين من يهود شرق أوروبا يؤيدون البوند وغيره من الجماعات الاشتراكية. في عام ١٩٢٥ ، شكل اليهود حوالي ١٥% من أعضاء الحزب الشيوعي في أمريكا. كانت هذه هي الاستمرارية لما بدأ في أوروبا الشرقية. غير أن المزيد من اليهود كانوا ينجذبون إلى الصهيونية التي نتيجة لذلك أصبحت منظمة يجب أخذها على محمل الجد. لم يكن العامل المحدد في هذا الصدد هو الرغبة في العودة إلى الأراضي المقدسة بل الرغبة في التضامن مع يهود فلسطين ومع هؤلاء الذين أرادوا أن يهاجروا إلى هناك من شرق أوروبا. كان يمثل هذا الاتجاه لويس د. براندیس (١٩٥٦- ١٩٤١) الذي ينحدر من أسرة من بوهيميا وكان على صلة بالفرانكية. في عشية الحرب العالمية الأولى، تقلد براندیس زعامة الصهيونيين الأمريكيين، إلى جانب مساندته لاستعمار فلسطين، بذل براندیس جهودا –بالتضافر مع غالبية الجماعات الصهيونية في أمريكا– للمساعدة في تأسيس مراكز يهودية لثقافتهم الخاصة هناك أيضا. أكد براندیس على رفضه لإلقاء اللائمة على "انقسام ولاء" للصهاينة- ما بين الوطن الأم وإسرائيل. كان براندیس

متفقاً تماماً مع المثل الأمريكية التي تقول بالنضال من أجل حياة أفضل. في هذه المرحلة بالتأكيد كان من واجب اليهود الأمريكيين الانضمام إلى الحركة الصهيونية. في عام ١٩١٢، قامت الصهيونية هنريتا سولد (١٨٦٠– ١٩٤٥) التي تنحدر من أسرة ذات أصول مجرية بتأسيس منظمة الهاداساه التي قدر لها أن تصبح أضخم منظمة يهودية للمرأة في العالم أجمع. إليها أيضا يرجع فضل خلق نظام مثالي للرعاية الصحية في فلسطين وانقاذ الكثير من الأطفال والشباب في أوروبا أثناء فترة النازي.

لم تقف عادات وممارسات يهود شرق أوروبا وحتى مؤيدي الصهيونية من بينهم عائقا أمام الاندماج مع المجتمع الأمريكي. في هذا كان اليهود متفقين مع نظرية "البوتقة" كما قدمها الصهيوني الإنجليزي ذي الأصول الشرق اوروبية إسرئيل زانجويل (١٨٦٤– ١٩٢٦) في مسرحيته الصادرة عام ١٩١٤ التي تحمل الاسم نفسه. تقول هذه النظرية أنه خلال الهجرة تختلط القوميات منتجة صفات جديدة لهذا الخليط. لذا، حاول اليهود خلق عرق أمريكي جديد دون الفقدان الكامل لخصوصياتهم الثقافية. ربما كانت الفكرة الأكثر ملاءمة هي التي وافق عليها أيضا براندیس "التعددية الثقافية" التي سمحت بالاحتفاظ الكامل بالتقاليد وتطويرها بشكل أكبر.

أدت موجة الهجرة التي حفزتها محاولة النازيين إبادة اليهود إلى بعث الثقافة اليهودية شرق الأوروبية في الولايات المتحدة الأمريكية. الآن بعد أن وصل الكثير من الأرثوذوكسيين المتشددين والجماعات الحسيدية إلى العالم الجديد، كان يحدوهم الأمل في أن يعيشوا على الأقل حياة دينية وفقا لمبادئهم الخاصة. بينما كان المعبد اليهودي وغرفة الصلاة أماكن تجمع ذات أهمية بالغة بالفعل في الشتيتل الأمريكي، الآن أضيفت غيره من المؤسسات منها الحيدر واليشيفوت. لازالت هذه الجماعات نشطة للغاية حتى يومنا هذا

ومن أهمها اللوبا فيتشرز الذين تعود أصولهم إلى الحاخام شنوير زالمان وجماعته هاباد حاسيديم وتميزوا بالتقوى الصوفية. مرة أخرى كانت إمكانات التدبر الذاتي والتأمل جزءا لا يتجزأ من المغالاة في الأرثوذوكسية والحسيدية الصوفية.

كانت هذه هي الحالة لأن الأزمة التي كانت تواجه المجتمع اليهودي الشرق أوروبي في الولايات المتحدة لا تخطئها العين. كان من أكثر الإشارات جلاء الارتفاع الهائل في نسبة الزواج المختلط. لم يعد معظم اليهود يصنفون أنفسهم حسب الديانة. من الواضح أن هذا لم يكن له أي دور في إيقاف عملية إحياء التقاليد والثقافة اليهودية وتحسين التعليم اليهودي وتشجيع اللغة اليديشية – يتضح أثر إسحاق سينجر في هذا الصدد– والبحث في الجذور التاريخية في أوروبا الشرقية وتوصيف الذات بأنها "يهودي غير متدين". في الوقت الحاضر، هذا الوضع قائم في كل مكان بين يهود الدياسبورا وحتى في إسرائيل.

مركز يهود شرق أوروبا:
جاليشيا وبوكوفينيا

في جاليشيا، إحدى أجزاء مملكة هابسبرج منذ تقسيمات بولندا، تشابهت الظروف معها في بولندا أو أوكرانيا مثلما تشابهت مع الظروف في بوكوفينيا التي في عام ١٨٤٩ كانت بلدا ملكيا منفصلاً تابعا لأسرة هابسبرج الحاكمة. عاش حوالي مليون يهودي في جاليشيا وعاش ١٠٠.٠٠٠ يهودي في بوكوفينيا قبل الحرب العالمية الأولى: وهو ما يعادل حوالي ١٠% من إجمالي السكان. كان الوضع القانوني هناك أفضل قليلاً منه في الإمبراطورية الروسية غير أن اليهود الشرق أوروبيين كان لازال عليهم تحمل عدد من القيود فيما يتعلق بأسلوب حياتهم التي كانت تهدف – على نهج إصلاحات جوزفين– إلى "جعلهم متحضرين". تبع ذلك منحهم المساواة القانونية عام

١٨٦٧. كانت الظروف الاقتصادية أسوأ منها – على سبيل المثال– في مملكة بولندا. فقد وصل معدل الفقر بين يهود جاليشيا إلى حدود لا يمكن تخيلها. كان من المجحف للغاية أن يحظى من يطلق عليهم اسم "تجار العبيد البيض" هنا بمهمة سهلة. قرابة نهاية القرن صدم العالم حالات مشينة تم استغلالها من قبل الدعاية المعادية للسامية. ارتحلت بيرثا بابينهايم (١٨٥٩– ١٩٣٦) كثيراً في أرجاء جاليشيا نيابة عن منظمات يهودية من أجل دحض هذه الحملة الدعائية ولتحديد أصول المأساة. لم ترهذه الأصول فقط في الظروف الاجتماعية ولكن أيضا في المكانة المتدنية للمرأة في العالم اليهودي التي تبدى ضررها الأن على وجه الخصوص في ظل وهن سلطة الدين والثقافة التقليدية.

تشكلت بروليتاريا يهودية ذات علاقة باستخلاص الزيوت المعدنية في دروهوبيتش. عملت نسبة كبيرة من اليهود – ١٥حوالي % عام ١٩٠٠– في مجال الزراعة. نتيجة لتخفيف القيود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبح هناك المزيد من اليهود أصحاب الحانات ومؤجري ومديري العقارات. بيد أنه إلى جانب هذا التطور، تم إحياء النسق التقليدي للصراع مع عدد من العناصرالإضافية. كوسطاء بين المدينة والريف، وبين أصحاب العقارات والفلاحين، لم يصبح اليهود فقط أكثر انخراطا في الصراعات الاجتماعية والاقتصادية بل اصبحوا أيضا تحت تهديد الصراعات الدينية والقومية المتصاعدة بين البولنديين وأهل روسيا الحمراء والنمساويين الألمان والكاثوليك والأرثوذوكس الروس والكاثوليك الشرقيين.

حين اندلعت الاضطرابات في الريف عام ١٨٩٨، حاول بعض رجال السياسة الجاليشيين البولنديين تأجيج لهيب الاضطرابات بحملات دعائية معادية للسامية. لقد أقيمت محاكمات لليهود بتهم

القتل الطقسي في الثمانينات من القرن التاسع عشر وقد هيأ الكونجرس الكاثوليكي عام ١٨٩٣ المناخ المناسب لهذا. كان من بين الكثير من أنواع التحيز الموغلة في القدم ومن أبرزها الاعتقاد بأن أصحاب الحانات اليهود كانوا يقومون بإغواء الفلاحين لشرب الكحوليات وأن المرابين اليهود كانوا يدفعون بهم إلى الإفلاس، وأن المسئول عن كل هذا كانت الحكومة في فيينا التي كانت تعطي الأفضلية لليهود. بهذه الطريقة كانت الفكرة هي تشتيت الاضطرابات المناهضة لحكومة أسرة هابسبرج الحاكمة – التي لم تكن حتى الآن قد أصبحت هدفا للتنفيث عن حنق الفلاحين مثلما اصبح أصحاب الأراضي البولنديون. كان يجب التضحية باليهود غير المحبوبين واستخدامهم كأدوات للتلاعب السياسي.

كان القسم الأعظم من اليهود في جاليشيا وبوكوفينيا من الحسيديين. جمع الكثير من الطوائف الصدوقية أتباعهم حولهم. إلى جانب هذا، احتفظت الحاخامية أيضا بنفوذها. من ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حاولت جماعة إصلاحية الجمع بين هذه الفرق وبذلك وضعت الأساس للنضال المشترك ضد المسكليم. . تشكلت الحياة في الشتيتل في جميع مناحيها بواسطة الدين والتقاليد. بسبب التراث الأدبي الثري، ظل عالم يهود الشتيتل بجاليشيا على قيد الحياة.

على سبيل المثال لا الحصر، ليوبولد فون زاخر مازوخ (١٨٣٦–١٨٥٩) وهو ابن رئيس الشرطة الجاليشي بمدينة ليمبرج وكان من أوائل مكتشفي الطبيعة الجاليشية في الأدب وأول من وصف حياة الشعب اليهودي في جاليشيا في الكثير من الحكايات المثيرة التي ألفها. كارل إيميل فرانزوس (١٨٤٨– ١٨٩٥) وهو ابن أحد العاملين الطبيين اليهود بالمنطقة تشورتكوف والذي تأثر به وكتب قصص رحلات عن جاليشيا وفوق كل هذا سعى بروح التنوير

لتصوير التقاليد اليهودية شرق الأوروبية وخاصة الحسيدية على أنها تقاليد "رجعية". في الواقع جاء أحد أعماله تحت اسم "من شبه آسيا". روايته الشهيرة "البوغاز" تناولت محاولة يهودي الهرب من عالم الشتيّل ولجوءه إلى الثقافة الألمانية على طريقة البيلدونجسرومان (الروايات التعليمية) الألمانية كما دافع عنها فرانتزوس. الكسندر جراناش (١٨٩٠– ١٩٤٥) الممثل الشهير ألف سيرته الذاتية (هناك يسير رجل) على نسق هذه الرواية وأسهم في صناعة أسطورة "أبناء جاليشيا الشرقية". هينده بيرجنر (١٨٧٠– ١٩٤٢؟) تنحدر من أسرة مالكة للأراضي الروزنبلاتس في رادينو (رادوم) وأصبحت في عداد المفقودين منذ عام ١٩٤٢. كتبت مذكراتها (في ليالي الشتاء الطويلة) كسجل للتاريخ العائلي رغم أنها تحمل سماتٍ الأدب الراقي. شموئيل يوسف أغنون (١٨٨٨– ١٩٧٠) نشأ ابنا لأحد الحاخامات في بوتشاتش كتب في البداية باللغة اليديشية ثم بالعبرية. إحدى أجمل رواياته (قصة بسيطة) تدور في شتيّل يهودي شرق أوروبي. في وقتٍ لاحق أصبح نشطا بالأصالة عن الجماعات الصهيونية وأخيرا هاجر إلى فلسطين/ إسرائيل. في عام ١٩٦٦ فاز بجائزة نوبل للأدب عن روايته (ضيف لهذه الليلة عام ١٩٣٨) التي تصور زيارة لمسقط رأسه بوتشاتش. كان واحدا من أهم الكتابٍ العبريين بالقرن العشرين. برونو شولتز (١٨٩٢– ١٩٤٢) كان ابنا لأحد تجار المنسوجات اليهود في دروهوبيتش (الآن في أوكرانيا). عمل كمدرس للتربية الفنية وعمل بالرسم وكتب قصص العبث الخيالي الصادمة لغويا على سبيل المثال رواية (محال القرفة، ١٩٣٤). قتل في الجيتو على يد النازيين عام ١٩٤٢. ينتمي شولتز لأعظم كتاب القصة في الأدب العالمي وغالبا ما تتم مقارنته بفرانز كافكا جوزيف روث (١٨٩٤– ١٩٣٩) ولد في برودي وأحيا عالم أسرة هابسبرج الحاكمة وخاصة الحياة في جاليشيا في الكثير من

الروايات والقصص ومؤلفات الرحلات (تم الاستشهاد بعدد من الفقرات من أعماله في هذا الكتاب). صديقه سوما مورجنستيرن (١٨٩٦– ١٩٧٦) ولد بالقرب من تارنبول كابن لقهرمان حسيدي (المسئول عن تدبير القصر أو الاقطاعية) قدم بشكل قوي الحياة اليهودية في الريف إلى جانب اتجاهات سياسية وروحية ودينية متعددة في سيرته الذاتية (في وقت آخر) وفي ثلاثيته (شرارات في الهاوية). مانيس شيربر (١٩٠٥– ١٩٨٤) المولود في مدينة زابلوتوف كان عالما نفسيا ونشطا صهيونيا ثم كشيوعي غير أنه خرج من حظيرة الشيوعية بتأثير من الستالينية. دون حياته في مذكراته [كل ما قد مضى] الجزء الأول [حاملو مياه الرب] يخبرنا بالكثير عن الحياة في الشتيتل– بينما يمكن أيضا إيجاد الكثير في ثلاثيته الروائية [كدمعة في المحيط]. روز أوسليندر المولودة في تشيرنوفيتش ابنة أحد التجار اليهود الذين يدعون الشيرتزرز نجت من مرحلة النازي تحت ظروف مميزة واشتهرت كشاعرة غنائية. كثيرا ما يشير شعرها المفعم بالحياة إلى المناظر الطبيعية في جاليشيا وإلى أهلها. بهذه الوسيلة، وجدت الكتابات التي تصف التعايش بين مختلف الشعوب طريقها إلى النشر.

تربة جاليشيا الشرقية تربة خصبة ثرية. بها الزيت الثخين والتبغ الأصفر والقمح الثقيل كالرصاص والغابات والأنهار والبحيرات العتيقة الحالمة وفوق كل هذا شعب جميل من الأصحاء: الأوكرانيين والبولنديين واليهود. ثلاثتهم يرى بعضهم البعض بالطريقة ذاتها رغم أن لكل منهم عادات وممارسات مختلفة. الجاليشي الشرقي أخرق ودود وميال للكسل قليلاً ويتسم كأرضه بالخصوبة. مسقط رأسي قرية تسمى فيرزبوتش بالبولندية وفيربوفيتش باليديشية وفيربيفيتزي بالأوكرانية... في قرية فيربيفيتزي عاش حوالي ١٥٠ أوكراني بينهم أربع أسر يهودية. جميعهم كانوا يكسبون رزقهم من العمل بالزراعة.

كان اليهود يملكون ايضاً بعض المحال الرثة الصغيرة وقد أجر أحدهم حانة القرية من السيد الإقطاعي. الفارق بين قرية فيربيزيتشي وبلدة هورودينكا الصغيرة كان أعظم منه بين بلدة هورودينكا الصغيرة وأية عاصمة أوروبية. كانت هورودينكا تتصف بجميع سمات المدينة غير الآمنة الصاخبة القاسية بينما فيربيفيتشي كانت قرية مسالمة مستقرة... انقسم الجزء اليهودي من البلدة إلى قسمين بالطريق الرئيسية: الشوارع العليا والشوارع السفلى... كانت الشوارع العليا في البلدة يتم كنسها ورشها بالمياه ويقوم خادمو المجتمع على رعايتها بيد أنه لم يأبه أحد لأمر الشوارع السفلى.... كانت الشوارع السفلى قذرة وتنبعث منها روائح كريهة وإن لم تقم الأمطار أو الجليد المتساقط بتنظيف القذارة أو تنقية الهواء كان أهل هذه الشوارع يختنقون ببساطة. كانت المنازل الخشبية الصغيرة قائمة مربوطة ببعضها البعض، كل منها ملاصق للآخر لأنه كان من الأرخص البناء ملاصقاً لجدار الجار. كان المنزل يتكيء على المنزل المجاور مستمداً منه الدعم ويميل عليه مثل المخلوقات المريضة العاجزة الواهنة المتجمدة والخائفة من أن تترك وحيدة. في تلك المنازل الصغيرة عاش الفقراء والإسكافيون والخياطون والنجارون والسمكريون وصانعو البراميل والبناؤن وصانعو الفراء والخبازون وجميع انواع السائقين والحمالين – جميع العاملين بكد الذين كانوا يسعون طوال اليوم محاولين أن يكسبوا بعض الخبز أو خمسةٍ كروزرات كي يجد الأطفال الذين يملئون الغرفة عن آخرها شيئاً يأكلونه. كان الناس ينتظرون يوم الثلاثاء على وجه التحديد حين كان الفلاحون واليهود من ٤٨ قرية في المنطقة يأتون للسوق. كان الناس يكسبون رزقهم أيام الثلاثاء من

هذه الأسواق. ثم سمع صوت ارتطام وهرع الجميع في كل الاتجاهات يلهثون ويتصببون عرقاً كما لو كانت نهاية العالم وشيكة.[٩٩]

في الكثير من المعالجات الأدبية والمذكرات، كان هناك تأكيد على أن اليهود وغير اليهود- بالاشتراك مع غيرهم في مناطق استيطان اليهود الشرق أوروبيين- بصفة عامة عاشوا سوياً في سلام تجمعهم روح الجيرة. في الكثير من الحالات شكل اليهود حلقة وصل بين البلدة والريف وكانوا يقومون بالأمور التجارية للفلاحين ويجلبون لهم الأخبار والمستجدات الثقافية. حتى وإن ظل اليهود "غرباء" في كثير من المناحي وكانت لهم طريقتهم الخاصة في القيام بالأمور ولأن منظمتهم المستقلة شكلت مجتمعاً منفصلاً، غير أنهم ظلوا جزءا من القرية أو البلدة التي يعيشون بها، على الأقل بين جزء كبير من السكان. إلى هذا المدى كانوا ايضا موضع ثقة. كان الناس يعلمون أنهم يمكنهم الاعتماد عليهم. على سبيل المثال، لاحظ شرطي نمساوي في جاليشيا أن الفلاحين من روسيا الحمراء كانوا يظهرون العداوة لأي شيء من خارج القرية لا "يرتدي قفطان اليهودي ... فهو يثق به [اليهودي] أكثر من موظفي الإمبراطور وحتى أكثر من ثقته بالزي الرسمي لرجل الشرطة."[١٠٠]

مرة تلو الأخرى حرض هذا العالم- بظروفه المادية الصعبة وأحواله التي غالبا ما تثير الشعور بالتضييق وفرض القيود- على الانفجار. كان لكل من آمال الخلاص المشيحانية والهسكالاة مراكز

---

[٩٩] ألكسندر جراناخ، هاهو رجل يرحل. رواية حياة (ميونيخ، ١٩٩٠)، ص. ١، ١٥، ٦٧، ٧٠- ٧١.

[١٠٠] فرايهير فينينر فون فينبرج، النمسا وجيشها (ليبزج، ١٨٤٧؟)، ص. ٨٢ بالكامل. في رأيي أن هذا الموقف يتسم به أيضاً فترة تلت هذا. أشكر ريتشارد ويدور على المرجع.

هنا واكتسبت الجماعات الإصلاحية اليهودية نفوذاً كبيراً، وبعد عام ١٨٦٧ ازدادت قوة حركة التنوير خاصة لأن نظام التعليم الجيد نسبيا وفر أساسا مؤيدا للتنوير. توحد بعض هؤلاء اليهود، دون التخلي التام عن هويتهم اليهودية، توحدوا مع الثقافة الألمانية وآخرون مع الثقافة البولندية بينما لم تر الجماعة الثالثة أن المستقبل في المثاقفة بل في التأمل في "القومية اليهودية".

من أمثلة تغيير التوجه اليهودي الكاتب والنحات ألفريد نوسيج (١٨٦٤– ١٩٤٣) من مدينة لفيف (لمبرج في أوكرانيا) إلى جانب مدينة كراكو وبرودي ومدينة تارنبول التي عدت مركز التنوير اليهودي ونقطة انطلاق لحركة نهضة الفن اليهودي. لقد سعى نوسيج في الأساس إلى التثاقف مع المجتمع البولندي وفي بداية ثمانينات القرن التاسع عشر تجد بولندا كولادة جديدة لإسرائيل مكنت من استمرارية التعايش بين اليهود والبولنديين الذي يمثله على وجه الخصوص آدم ميكيفيتش تحت شعار المشيحانية. مصابا بخيبة الأمل من تزايد الميول المعادية للسامية، تحول نوسيج بعدئذ إلى القومية اليهودية. عندئذ، حدد نوسيج هدفه بأنه تأسيس دولة يهودية في فلسطين وأصبح أحد أهم المنظرين للقومية اليهودية في جاليشيا. في بواكير عام ١٨٨٦، توصل نوسيج إلى الرأي القائل بأن الصراع بين اليهود وغير اليهود يمكن القضاء عليه فقط بإنهاء الدياسبورا وتمكن غالبية اليهود من تشكيل دولة متكاملة في وطنهم الأصلي. أثارت آراء نوسيج الأصولية الجدل حتى بين الجماعات الصهيونية. في عام ١٨٨٣ تم تأسيس أول منظمة يهودية قومية في لفيف وسرعان ما تبعها تأسيس منظمات أخرى. كان الرأي السائد يهدف إلى استقرار اليهود الفقراء و"المعرضون للخطر" كمزارعين مستعمرين في فلسطين وحماية الوجود اليهودي القومي في جاليشيا نفسها. لذا كان من المفترض أن يتطور المفهوم القومي في البلد الذي

يعيش به المرء. كانت هذه السمة تميز الطبيعة الخاصة للصهيونية في أوروبا الشرقية وكانت تتصل بتطور وعي ذاتي جديد وأرض مشتركة بين اليهود الشرق أوروبيين. في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧، قدم أبراهام زالتس (١٨٦٤– ١٩٤١) من مدينة تارنوف والذي تم انتخابه أيضا كثاني نائب رئيس، تقريرا حول وضع اليهود في جاليشيا كما قام ماير إيبنر (١٨٧٢– ١٩٥٥) من تشيرنوفيتش بالمثل بالنسبة ليهود بوكوفينا. تحت السطح الهادئ، كان هناك صراع يضطرم بين الصهيونيين اليهود الغربيين الذين وجه إليهم اللوم لإهمال العمل في الدياسبورا. ظهر هذا الصراع في وقت لاحق حين حاول هيرتزيل إعاقة أنشطة الاستعمار التي قام بها الجاليشيون في فلسطين، لأن الجاليشيين أرادوا ضماناتٍ سياسية "بحقوق استيطانية" معينة. كانت هناك أيضا صراعات مع اليهود الأرثوذوكس ومع اليهود المؤيدين للاندماج في جاليشيا الذين ساد بينهم التوجه الودي نحو البولنديين بشكل تدريجي. فقد خشوا من أن تشكل الأنشطة السياسية للصهاينة تهديدا لوضعهم – في الجماعات الدينية أيضا– وأن اليهود سيتم استدراجهم لينخرطوا أكثر في الصراع بين القوميات في جاليشيا.

في بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر، تم تأسيس "الحزب الوطني اليهودي" لخلق إمكانية التصرف المستقل في جاليشيا. اعتبر القوميون اليهود– المتركزون بشكل كبير في لفيف– الحركة الصهيونية في جاليشيا الأقوى من نوعها واعتقدوا أن الجماعات الصهيونية في فيينا لا يمثلونهم بشكل كاف. رغم ذلك، لم يرد الفريق الأخير إحداث انقسام تنظيمي وفي عام ١٨٩٣ انضموا إلى "الحزب الوطني اليهودي العام للنمسا" الذي تشكل في كراكو. حظي هذا التنظيم المشترك بالنجاح طالما كان يدرك طموحات الجاليشيين. في عام ١٨٩٥ شكل هذا الحزب مجلسا في شكل "جمعية سياسية" لتنسيق

السياسة الإقليمية بشكل أفضل. توجهت جهود هذا الحزب إلى تحقيق الاستقلال القومي والحصول على منزلة قانونية متساوية كشعب وأمة في ذات الوقت مع الشعوب الأخرى في جاليشيا وعبر إمبراطورية هابسبرج.

كان للمقترحات الملموسة للتخفيف من وطأة الفقر وتحسين النشاط الاقتصادي وتحسين التعليم والثقافة أتباع كثيرون بين اليهود. كما أيدتها أيضاً الطبقة العاملة. كانت جماعة بول زايون أكثر الجماعات نشطاً على الصعيد التنظيمي. في الانتخابات البرلمانية النمساوية لعام ١٩٠٠– ١٩٠١ تمكن الصهيونيون من انتخاب ممثل لهم لأول مرة من الدائرة الانتخابية الجاليشية لمدينة برودي. في عام ١٩٠٧، في الانتخابات العامة المباشرة الأولى لمجلس النواب للرايشسرات، تم انتخاب ثلاثة عشر نائباً يهودياً: أربعة منهم كانوا سياسيين صهاينة من جاليشيا وبوكوفينيا قاموا بتشكيل "النادي اليهودي" وهو ظاهرة متفردة في أوروبا في ذاك الوقت. كان لا يمكن التغاضي عن الاعتراف بالقومية اليهودية والاستقلال القومي– واليديشية كلغة قومية– في المناقشات السياسية في امبراطورية هابسبرج. في النهاية لم يتم التوصل إلى هذا الاعتراف فقد خشت الحكومة النمساوية من أن تضعف "الألمانية" إن تمكن السكان اليهود من تشكيل قومية منفصلة. رغم هذا، تم منح حق إعلان القومية اليهودية لبوكوفينا عام ١٩١٠.

في انتخابات عام ١٩١١ عانى الصهيونيون والقوميون اليهود من مرارة الهزيمة. يناح باللائمة في هذا الصدد على اليهود المندمجين والأرثوذوكس الذين حاولوا بشتى الطرق الممكنة إعاقتهم. مع وضع هذا في الاعتبار، شكلوا تحالفات ليس فقط مع بعضهم البعض ولكن أيضاً مع الأحزاب البولندية. يبين التحليل لنتائج الانتخابات أن التأييد للصهيونية بين اليهود كان لا يزال تأييداً واسعاً. في الشتتلات جُوبه

اليهود المندمجين والأرثوذوكس بالرفض القوي من قبل السكان المتأثرين بالحاخامات أو الصدوقيون. حتى وإن كان هناك تأييد لاستعمار فلسطين فلم يقم سوى جماعة مزراحي الصهيونية بالتحرك لتحقيق هذا الهدف. في الوقت ذاته كثيرا ما قام هؤلاء الذين كانوا يبدأون في تحرير أنفسهم من الروابط التقليدية بانتخاب المرشحين الصهيونيين. من الأمور التي توضح قوة الجماعات الصهيونية ما ورد في تقرير من جاليشيا صادر عن المؤتمر الصهيوني العاشر في بازل في عام ١٩١١ من حديث عن ١٠٣ جمعية و١٣ منظمة شبابية بها حوالي ١٠.٠٠٠ عضو.

نظمت الحركة العمالية نفسها كقسم يهودي في الحزب الديموقراطي الاشتراكي البولندي. ثم في عام ١٩٠٥ في الحزب الديموقراطي الاشتراكي المستقل اليهودي في جاليشيا الذي عمل عن كثب مع البوند. كانت هناك أيضا تحالفات مع بول تسيون رغم المنافسة الداخلية بين صفوف اليهود. هدفت المطالب السياسية المشتركة إلى عدم نيل اليهود للاستقلالية بأراض بعينها داخل الدولة. لعبت جماعة كراكو "لليهود المستقلين" الذين رفضوا كلاً من الاندماج وأيديولوجيات الحزب وأيدوا الديموقراطية والمساواة في الحقوق دوراً هاماً بين الشعب اليهودي بجاليشيا. في انتخابات الرايشسرات عام ١٩٠٠ فاز مرشح "اليهود المستقلين" في مواجهة رئيس الجماعة اليهودية في كراكو وهو مؤيد للاندماج أيده المحافظون البولنديون.

\\\نموذج إيجابي مليء بالتناقضات: الجزر

تقع الأحداث في الجزر في كثير من المناحي خارج إطار هذا الكتاب. المثير للعجب أنه في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن التاسع عشر طالب أقطاب المجتمع منح اليهود مكانة قانونية مساوية لغيرهم غير أن هذا المطلب قوبل بالرفض لمدة طويلة من قبل الحكومة المركزية لهابسبرج. رغم ذلك، كان من الممكن تحقيق بعض

التحسينات. في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، تم النكوص للوراء حين اشتبكت القومية المتصاعدة –التي كللت بثورة عام ١٨٤٨– في صراع مع مصالح اليهود. في الرابع عشر من مارس من عام ١٨٤٨ جدد مجلس الشعب في بودابست الأمل في منح حقوق مساوية لليهود الذين شاركوا في النضال التحرري بأعداد كبيرة. بعد هذا بأيام قلائل، تعيّن سحب هذا القرار تحت وطأة ضغوط المظاهرات الشعبية التي قام بها بشكل رئيسي طبقة البرجوازية الصغيرة والحرفيون اليدويون الذين رأوا أن اليهود هم السبب في وضعهم المحفوف بالمخاطر. في أماكن كثيرة تعرض اليهود للسرقة والضرب وتم تدمير المعابد اليهودية. حتى بودابست لم تسلم من الأذى. رغم كل هذا، تقدم الكثير من اليهود للدفاع عن المجر في وجه تقدم النمساويين ونتيجة لذلك اضطروا لدفع جزاءات مالية ضخمة. رغم ذلك، منحهم البرلمان المجري حقوقاً مساوية لغيرهم من المواطنين في ٢٨ يوليو ١٨٤٩ قبل أن يتم حله.

في عام ١٨٦٧ قدم دستور المملكة المزدوجة للنمسا والمجر أخيراً حقوقاً متساوية لليهود. تبع هذا منح المساواة العقائدية لليهود في عام ١٨٩٥. غير أنه كان لا يزال هناك تمييز ضد اليهود في المجر وإن كان أقل وطأة فيها عن غيرها من الأماكن. توقع الناس اندماج اليهود: في هذه الحالة التحول إلى المجرية. أدى هذا إلى نوع من صراع الحضارات. في العموم كان اليهود الأرثوذوكس – يهود شرق أوروبا والحاخامات المحافظون– غير راغبين في اتخاذ هذه الخطوة. كان لتعاليم حاتام سوفير وخلفائه، الذين رفضوا اي نوع من البدع ومن وجهة نظر أرثوذوكسية مغالية اعتبروا اليهود أمة، تأثير هائل في هذا الصدد. أدى هذا إلى صراعات عنيفة مع الجناح الإصلاح الليبرالي. بعد مؤتمر نواب المجتمعات اليهودية الذي أقيم في نهاية ١٨٦٨ وبداية ١٨٦٩ التي نال فيها الإصلاحيون غالبية الأصوات، انقسم اليهود إلى

جماعات منفصلة: "النيولوجي" المؤيدة للإصلاح وهي أكبر الجماعات، والأرثوذوكس و"حزب ما قبل الوضع الراهن" الذي أراد الحفاظ على أوضاع الأمور كما كانت قبل قيام مملكة بولندا. في المجر من المؤكد أنه كانت هناك نزعات معادية لليهود. على السطح ظهرت هذه النزعات في تشكيل جماعات معادية للسامية منذ أربعينيات القرن التاسع عشر وفي فضيحة "تهمة القتل الطقسي" التي وجهت إلى تيزاإيزلار عامي ١٨٨٢-١٨٨٣. في المجمل، حتى قيام الحرب العالمية الأولى كانت سياسات حكومة البلاد ودودة إلى حد ما تجاه اليهود. لكن كيف نشأ هذا الوضع الاستثنائي؟

لقد كان السكان اليهود في المجر يتزايدون بشكل سريع للغاية. كانت نسبتهم لإجمالي السكان حوالي ١% (٨٠.٠٠٠ نسمة) في عهد جوزيف الثاني غير أنهم بحلول الحرب العالمية الأولى أصبحوا يمثلون ٥% من إجمالي السكان (٩٠.٠٠٠ نسمة). في أوائل القرن الثامن عشر كان معظم الوافدين من المهاجرين اليهود – ثلثا اليهود الذين يعيشون في المجر في ذلك الوقت– كانوا من مورافيا بشكل أساسي ثم من بولندا. منذ نهاية القرن الثامن عشر، ساد المهاجرون من جالشييا الذين ساندوا أيضا الجماعات اليهودية في جبال الكاربات. قدمت طبقة النبلاء العليا الدعم لاستيطانهم. تمتع الكثيرون منهم بالرخاء خاصة إذا كانوا لديهم بالفعل إمكانات مادية كافية وقد كان هذا غالبا الحال مع اليهود القادمين من مورافيا. كان يقال بشيء من المبالغة:

يهاجر اليهودي إلى مارماروز. هناك لازال يعمل كمتسول وعامل بالأجر ومدير حانة. يتوجه ابنه على بعد مقاطعتين إلى الغرب ويصبح صاحب مصنع وتاجر أو مؤجر على نطاق واسع. وإذا توغل مقاطعة أو اثنتين أكثر في البلد، يصبح بالفعل مالكا كبيرا للأراضي ويمتلك قلعة. في بودابست يكون هدفه أن يكون من طبقة

النبلاء ومقعد بالبرلمان وحيازة رتبة البارونيت. وحين يجمع عدة ملايين ينتقل إلى فيينا.[١٠١]

تقدم هذه الفقرة بطرق كثيرة ملخصاً نموذجياً للتطورات التي شهدها اليهود. اليهود المهاجرون- وليس أقل منهم اليهود الشرق الأوروبيين من جاليشيا – اضطلعوا بمهام كانوا بالفعل يقومون بها في بولندا وجزئيا في بوهيميا وموارفيا. بهذه الطريقة تعايشوا عن كثب مع الطبقة العليا للنبلاء التي ظلت موجودة في المجر بينما اندثرت في بولندا. أرادت طبقة النبلاء المجرية النزاعة لليبرالية بسبب معارضتها للحكم المطلق لأسرة هابسبرج ان تلعب دورا نشطا في الاقتصاد المالي وإدخال الزراعة الحديثة إلى البلاد. وكان بوسع اليهود المحنكين مساعدتهم في هذا الصدد. أصبح اليهود مرة أخرى مؤجرين ومديرين وأصحاب حانات. غالبا ما شكلوا إلى جانب النبلاء جزءا من النظام الاقتصادي انتمى إليه أيضا تجار الجملة اليهود والصيارفة اليهود، في مدينة بيست أو حتى في فيينا أو فرانكفورت. كان اليهود الذين يصيبهم الثراء يتجهون بعد ذلك إلى المدن- كما ذكرنا آنفا- وخاصة إلى بودابست. في عام ١٩١٠ شكل اليهود ٢٥% من السكان (وفي المناطق التجارية بوسط المدينة شكلوا ما يزيد عن ٣٥%). هنا ظهرت نخبة برجوازية مالية مستقلة عن الطبقة العليا للنبلاء غير أنها لازالت مرتبطة بصلة وثيقة بها اقتصاديا. على النقيض من بولندا، بقي هذا التحالف بشكل أو بآخر في المجر حتى

---

[١٠١] كارولي إيوتفيس، محامي الدفاع في محاكمة تيسزايسلر. كما ورد على لسان والتر بيتش: الهجرة اليهودية من جاليشيا ويهود المجر"، في اليهود في شرق ووسط أوروبا، ص. ٢٧١- ٢٩٣، هنا ص. ٢٨١ بالكامل. أشكر والتر بيتش أيضاً على مصادر أخرى تقوم على بحثه الجاري.

قيام الحرب العالمية الأولى. يمكن للمرء التحدث عن "عقد اندماج" صحيح (كما قال فيكتور كارادي): كان أغلبية اليهود المجريين مستعدين للتحول إلى الهنغارية ووضع إمكاناتهم في خدمة تطور المجتمع ككل. في المقابل، تم الاعتراف بحقوقهم المتساوية واندماجهم مع المجتمع الهنغاري ولم يلق أصحاب السلطة حوله بالشكوك. باستحضار يهود الخزر إلى الأذهان، كان من الممكن إعادة كتابة تاريخ يهودي–هنغاري عادي. لاقت الجماعات الصهيونية هذا "العقد" بالقبول غير أنهم طالبوا بالولاء والمساندة لليهود المعرضين للخطر في البلاد الأخرى. من ثمّ، أثاروا ردود فعل عنيفة من جانب الكثير من اليهود المندمجين الذين رأوا أن وضعهم في المجتمع الهنغاري يكتنفه الخطر.[١٠٢]

لم يكن "عقد الاندماج" خالياً تماماً من المنازعات. على سبيل المثال، كان النبلاء الغارقون في الديون مناهضين له. كان الخصوم الرئيسيون لليهود هم الألمان من أهالي المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي – الذين لم يكن لهم أية أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع ككل– وعلى رأس خصومهم أيضاً نجد الفلاحين كما هو الحال في بولندا وروسيا. نتيجة لهذه الصراعات الاجتماعية، بدأ الاستياء من اليهود وتبعه في وقت لاحق مشاعر المعاداة للسامية. من العلامات الواضحة على هذا قيام ثورة الفلاحين في المنطقة الشرقية عام ١٨٣١ والتي كانت موجهة بصفة أساسية ضد السادة الإقطاعيين ويهود القرى.

كان كره اليهود المقيمين بالبلاد منذ أمد تجاه اليهود المهاجرين الوافدين إليهم حديثاً عاملاً هاماً في تنامي نزعات معاداة السامية التي ظهرت أخيراً من خلال الانقسام الديني المذكور آنفاً. رفض

---

[١٠٢] للمزيد من التفاصيل، ارجع إلى بيتر هابر، بداية الصهيونية في المجر (١٨٧٩- ١٩٠٤) (كولونيا- فايمر- فيينا، ٢٠٠١).

اليهود المندمجون الإصلاحيون اليهود الأرثوذوكس أو اليهود الشرق أوروبيين من الحسيديين (الأوستيودن) لأنهم أشعلوا لهيب الصراع فيما يتعلق بمكانتهم في المجتمع. كلما توافد المزيد من اليهود – خاصة أوست يودن– إلى بودابست، كان يتأكد الانطباع – الخاطيء– بأن حشود من اليهود "الأجانب" كانوا يتوافدون إلى البلاد. من هنا جاء مفهوم "اليهودي الصالح المندمج" و"اليهودي السيء الجاليشي" الذي شكل بعد الحرب العالمية الأولى الأساس الذي قامت عليه المعاداة السافرة للسامية. لم يعد بالإمكان تصحيح هذا الانطباع على يد الطبقة اليهودية العليا لأنهم بأنفسهم ذات مرة أعلنوا هذا التمييز.

مواقف متباينة تجاه تحرير اليهود في رومانيا وصربيا وبلغاريا

عاش حوالي ٣٠.٠٠٠ يهودي في رومانيا في بداية القرن العشرين وهو ما يعادل حوالي ٤% من إجمالي تعداد السكان. إبان القرن التاسع عشر شهدت نسبة اليهود الشرق أوروبيين ارتفاعاً ملحوظاً لأن الكثير من اللاجئين من الامبراطورية الروسية وجاليشيا هاجروا إلى البلاد لرغبتهم في التهرب من الخدمة العسكرية والهروب من الجور المتزايد الذي تعرضوا له. استقر معظمهم في مولدافيا. في بوخارست شكل اليهود حوالي ١٥% من إجمالي السكان قرابة نهاية القرن، وفي إياسي ما يربو على ٤٠%. اعتبرت الدوائر الحاكمة المهاجرين إلى البلاد "أجانب" ونقلت هذا المفهوم إلى جميع اليهود الذين يعيشون في رومانيا.

اضطرت تركيا– التي كانت رومانيا في البداية تحت سيادتها الرسمية في القرن التاسع عشر– إلى قبول التأثير السياسي للامبراطورية القيصرية لخمس سنوات أخرى بموجب اتفاقية أدرنة للسلام المبرمة عام ١٨٢٩. بهذه الطريقة خضعت رومانيا لدستور فرض عليها فرضاً في ١٨٣٢. أنكرت رومانيا على اليهود حقوقهم

السياسية وحظرت عليهم تأجير أرض الاستيطان وسمحت بالتطبيع فقط مع المسيحيين. ظلت هذه القيود القانونية سارية حتى عند إلغاء الدستور عام ١٨٤٨. في الستينيات من القرن التاسع عشر وصلت المناقشات حول "المسالة اليهودية" إلى ذروتها. في ١٨٦٢ اتحدت مولدافيا ووالشيا كإمارة تحت لواء رومانيا. في ١٨٦٦ كارل فون هوهين تسولرن سيجمارينجين أصبح خليفة لأول أمير ألكندرو كوزا عند تنازله عن الإمارة. أثناء المناقشات الدستورية التي أعقبت هذا قام بعض السياسيين بإثارة الحشود في بوخارست إلى حد وضع البرلمان تحت الحصار. قدم النواب المذعورون وعودا بألا يحظى اليهود بالمساواة في الحقوق. رغم ذلك قامت الحشود بتدمير المعبد اليهودي في بوخارست بالكامل وآذوا اليهود العابرين في الطرق. تدخل عدد من البلاد الأجنبية، بداية من مملكة النمسا-المجر، تدخلوا من أجل "يهودهم الواقعين تحت الحماية" الذين يعيشون في رومانيا. غير أن الأمور تطورت إلى الأسوأ. اتخذت الحكومة الليبرالية الإجراءات اللازمة لإخراج اليهود من القرى- ومرة أخرى بصفة أساسية من التجارة المرخص بها- ومن لم يف بأدنى المؤهلات الملكية المطلوبة يجب أن يرحل عن المدن (ومن ثمّ عن رومانيا) "كمتشرد". كانت هناك مشاهد مأساوية على الحدود، بعضها انتهى نهايات دامية.

تحول كونجرس برلين في ١٨٧٨ إلى قضية هامة في النقاش الدائر بخصوص منح اليهود حقوقا مساوية. في الحرب الروسية-التركية عام ١٨٧٧ حصلت رومانيا على استقلالها الكامل من الامبراطورية العثمانية. كان من الأسباب الهامة لذلك الانطباع الذي تركه ممثلو التحالف الاسرائيلي – منظمة في باريس كانت تقدم الدعم لإخوانهم في الديانة المعرضين للظلم. أعلنت القوى الأوروبية العظمى أنهم لن يستطيعوا الاعتراف بالاستقلال الروماني إلا إذا منح اليهود حقوقا

مساوية لغيرهم. حتى روسيا بعد قليل من التردد أيدت هذا الموقف. في خلفية كل هذا كان هناك الأمل في أن تستطيع المساواة الدينية العامة محو بقعة الاضطراب هذه من البلقان. دوّن هذا المطلب في المادة ٤٤ من اتفاقية برلين.

لم يضف خضوع الحكومة الرومانية للضغوط المحيطة إلى اليهود غير المحبوبين بالفعل شعبية أكثر. فيما يتعلق بتطبيق بنود الاتفاقية، استطاعت السلطات الرومانية الحصول على امتيازات وتأجيلات من القوى العظمى إلى أن أصبحت المطالب تنادي بأن يتم التطبيع مع اليهود ولو على أسس فردية. كان يتم التعامل مع كل تطبيق للتطبيع من خلال لجنة برلمانية خاصة. نتيجة لذلك، توصلت حالات قليلة نسبيا إلى نتائج إيجابية. لم تعد القوى العظمى مهتمة أو كانت هي نفسها- على سبيل المثال ألمانيا والاتحاد النمساوي المجري- تسودها الميول المعادية للسامية. كان خط السكة الحديد الذي سيشق رومانيا أكثر أهمية لدى الحكومة الألمانية من مسألة حقوق اليهود. لذا ظلت رومانيا إلى جانب روسيا، الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم تمنح اليهود المساواة في الأوضاع القانونية. نصت قوانين خاصة على منع اليهود من الاشتغال بتجارة التبغ- وهي تجارة تحتكرها الدولة- ومنعهم من إدارة الحانات ومد السكك الحديد القومية أو من الاشتغال بأي تجارة جائلة. لم يسمح لليهود بالالتحاق بالمدارس الثانوية سوى حين لا يكون هناك طلبات التحاق كافية من غير اليهود. لم يسمح لليهود بتملك الأراضي. في عام ١٩٠٢ صدر قرار ينص على أن المواطنين الرومانيين فقط يمكن قبولهم في نقابات العاملين بالحرف اليدوية. بهذه الطريقة انضم الكثير من اليهود إلى صفوف العاطلين. واضطرت أعداد كبيرة منهم إلى الهجرة من البلاد.

بدءاً من عام ١٨٧٦، فرض على اليهود الالتحاق بالخدمة العسكرية رغم أنه لم يسمح لهم بأن يصبحوا ضباط. لم يقدم هذا شيئاً يذكر لتحسين مشاعرهم الوطنية التي كانت موجودة على وجه اليقين. في نهاية عام ١٨٩٥ تم تأسيس تحالف معادي للسامية في بوخارست. انضم الكثير من أصحاب المكانات المرموقة في الحياة العامة إلى هذا التحالف بما فيهم أعضاء في الحكومة. كان هدف هذا التحالف – الذي حاول الحفاظ على السرية القصوى– إجبار اليهود على ترك الحياة الاقتصادية والإسراع بهجرتهم من البلاد. استغل مثيرو الإضطرابات التحيزات الدينية لأقصى حد. كان التحالف مسؤولاً عن عدد من أعمال العنف ضد اليهود.

كان بادياً للعيان استحالة اندماج اليهود في مثل هذه الظروف. عاش غالبية اليهود في نفس المناطق وتحدثوا اللغة اليدشية. كنشطاء سياسيين مال معظم اليهود إلى اليسار. من اجل كسب أصوات الناخبين حاول بعض زعماء الحزب الديموقراطي الاشتراكي في البداية بناء منظمات "خالية من اليهود". غير أنهم رغم ذلك منوا بالهزيمة وبعد رحيلهم كانت أبواب الحزب مفتوحة على مصراعيها أمام انضمام اليهود مرة أخرى.

في ١٩٠٧ اندلعت ثورة كبرى للفلاحين والتى قامت الاضطرابات المتعلقة بها في أماكن موجهة ضد اليهود كسبب مزعوم للفقر. تعرض الكثير من اليهود للسرقة وسوء المعاملة. بينما استمرت القلاقل، تحوّل الفلاحون مباشرة ضد كبار الإقطاعيين. ربما كان من العوامل التي أدت إلى هذا حقيقة أن الاشتراكيين– الذي كان بين ظهرانيهم الكثير من اليهود– حاولوا شجب الفقر الذي يعاني منه الفلاحون وفي الوقت ذاته التخفيف من وطأة العداء التي وجهوها لليهود. نتيجة لذلك وبعد الفشل الدامي لهذه الثورة، أشارت أصابع الاتهام إلى الاشتراكيين اليهود كمسئولين عن إثارة القلاقل وتم إبعادهم عن

البلاد. مرة أخرى أثبتت المعاداة للسامية أنها أداة سهلة للغاية للتلاعب في اي اتجاه.

تطورت الأمور على نحو مختلف في صربيا وبلغاريا. صربيا التي قطنها حوالي ٥٠٠٠ يهودي في منتصف القرن التاسع عشر التزمت ببنود معاهدة برلين ومنحت اليهود حقوقا مساوية لغيرهم. ثار هناك خلاف شائق في كونجرس برلين بهذا الشأن. أعرب وزير خارجية القيصر جورشاكوف عن رأيه أن "يهود برلين وباريس ولندن وفيينا- الذين لا يمكن حرمانهم من الحقوق المدنية والسياسية – لا يجب مقارنتهم بيهود صربيا ورومانيا وبعض المقاطعات الروسية التي تشكل بلاء حقيقي للسكان الأصليين للبلاد." رد بيسمارك قائلاً: "إن هذا الوضع المحزن لليهود ربما يمكن إرجاعه إلى تقييد حقوقهم السياسية والمدنية" ردا على هذا أعلن جورشاكوف "إن الحكومة الروسية لتحمي مصالح الشعب ليس بوسعها سوى أن تخضع يهود بعض المقاطعات لقوانين خاصة." أخيرا تم التصديق على وجهة النظر التي تقدم بها وزير الخارجية الفرنسي – وادينجتون- ومفادها أن "صربيا- التي كانت تسعى للانضمام إلى أسرة الدول الأوروبية يجب أن تقرر قبول المبادىء التي تشكل في كل الدول الأوروبية أساس التنظيم الاجتماعي."[١٠٣]

كان الوضع في بلغاريا مماثلاً. هنا أيضاً حظى حوالي١٠٠٠٠ يهودي بالمساواة في الحقوق التي يكفلها القانون الدولي لعام ١٨٧٠. كان عددهم في ازدياد حتى نهاية القرن ويرجع هذا إلى التوسع في الأراضي الخاضعة للبلاد عام ١٨٨٥ فارتفع عددهم إلى حوالي ٣٠٠٠٠ نسمة أي حوالي ١% من السكان. أقام حوالي ثلث هذا

---

[١٠٣] سيمون ديبنو، قصة العالم عن اليهود. من البدايات المبكرة حتى يومنا هذا (برلين، ١٩٢٨)، الجزء التاسع، ص. ٤٢٥، ٤٩١.

العدد في العاصمة صوفيا. ربما كان جديراً بالذكر أن في ذلك الوقت استقر اليهود السفاردة بشكل رئيسي هناك وكانوا يتحدثون اللادينو أو الإسبانية اليهودية. كان التوجه للاندماج ضعيفا إلى حد ما بينما استطاعت الجماعات الصهيونية بسرعة التوسع في تأثيرها بعد نهاية القرن. رغم قيام بعض أعمال العنف المناهضة لليهود، لم تكن نبرة المعاداة للسامية سافرة كما هو الحال في أماكن أخرى. ربما كان من أسباب ذلك هو أن شخص "العدو" كان يتجسد بشكل لا يكتنفه الغموض في الأتراك.

"القتل الطقسي": حالة بوهيميا وموراڤيا

حدث الاندماج بشكل سريع للغاية في بوهيميا وموراڤيا. قرابة نهاية القرن عاش حوالي ١٥٠.٠٠٠ يهودي في بوهيميا وموراڤيا وهو ما يوازي حوالي ١.٥% من السكان. في براغ- إضافة إلى الضواحي الداخلية- شكلوا حوالي ٨% من السكان (٢٧.٠٠٠ نسمة). في القرن الثامن عشر كان اليهود هنا وسطاء بين الريف والمدينة في تعايش سلمي مع طبقة النبلاء. أدى تشريع جوزفين المتسامح ظاهريا وما ترتب عليه إلى الإضرار بيهود الريف. لم يستطع اليهود- الذين كانوا مقيدين بالفعل بقانون "تحديد الأسرة"- بأية طريقة أن يستقروا حيثما يتخيرون. في براغ، مركز البلاد، وفي مدن أخرى اضطروا للعيش في مناطق محددة. لم يسمح سوى لعدد قليل- ممن يتمتعون بالثراء الفاحش- بالانتقال للعيش في الشوارع "المسيحية". في عام ١٨٤٩ منحت دولة هابسبرج أخيرا لليهود حرية الحركة وألغت قانون الزواج. في عام ١٨٥٢ انهارت حواجز الجيتو في براغ. في عام ١٨٦٧ تم منح اليهود المساواة القانونية الكاملة بحكم القانون. في هذا الوقت انتمى عدد قليل من اليهود خاصة في بوهيميا ولكن أيضا في بعض المدن بموراڤيا خاصة برون إلى الطبقة العليا. كان هذا نتاجا للتوجه السريع للتصنيع بدءا من ثلاثينيات القرن التاسع

عشر الذي جرى في بوهيميا بشكل اسرع منه في أي مكان آخر بأوروبا الشرقية. ارتقت بوهيميا لتصبح المركز الصناعي لامبراطورية هابسبرج. لعب أصحاب الأعمال من اليهود الذين تمركزوا في براغ دورا استثنائيا في هذا التطور. جعل هذا من الاندماج مع الطبقة البرجوازية الألمانية–النمساوية أيسر.

بهذه الطريقة دخلوا منطقة صراع صادفناها من قبل بمظهر مغاير. تشكل هذا الصراع ودار بصفة رئيسية في المدن بينما في الريف– ونتيجة للظروف الاقتصادية الاجتماعية المواتية هناك– لم تتطور بالكاد معاداة السامية السافرة. كان الكثير من التشيك يخلطون بين اليهود والألمان وهم الطبقة الحاكمة التي تقف في طريق التحرر القومي وأيضا بينهم وبين الرأسماليين المستغلين للبروليتاريا التشيكية. أضيف الآن الصراع الاجتماعي الناجم عن التصنيع إلى قائمة التحيزات المعادية لليهود إلى جانب الصراع القومي. أهم من كل هذا أصبحت المناطق الحضرية تربة خصبة للقومية ومعاداة السامية طالما عاش العمال الريفيون ذوو التعليم المتواضع المفتقرون للأمن إلى جانب أصحاب الحرف اليدوية والتجار الذين شعروا أن هناك خطر يتهدد رزقهم.

بشكل مستمر اندلعت الاضطرابات ضد اليهود في براغ وأجزاء أخرى من بوهيميا وموراڤيا. استغلت الأحزاب الوطنية هذا المناخ بشكل متزايد كي يجذبوا أتباعا لهم يمنحونهم أصواتهم في الانتخابات. انطبق هذا أيضا على حزب الشباب التشيك كما انطبق على الحزب الاشتراكي الوطني الذي (رغم عناصره المعادية للسامية يجب ألا يتم الخلط بينه وبين الحزب الألماني الحالي الذي يحمل الاسم نفسه) وكذلك النوادي والجمعيات الوطنية الألمانية. كما كان الحال في بولندا تم تنظيم مقاطعات اقتصادية لليهود تحت شعار "كل يُترك وشأنه."

وصلت التوترات إلى أوجها قبيل نهاية القرن. في ١٨٧٩ اضطر الإيرل كازيميرز باديني إلى تقديم استقالته بعد إخفاق خطة الحكومة لرفع اللغة التشيكية إلى مرتبة اللغة الإدارية في بوهيميا وموراڤيا بسبب المقاومة القومية الألمانية. ظهرت خيبة أمل التشيك في نهاية نفس العام في حادث تافه حفز اعتداءات على المؤسسات ومقار الأعمال الألمانية في براغ. تحول هذا بدوره إلى أعمال عنف مناهضة لليهود على نطاق واسع حتى ضد اليهود الفقراء في منطقتهم التقليدية جوزيفوف. كان على الحكومة إعلان حالة الطوارئ لإعادة السلام والنظام للبلاد. حتى بعد أن انتهت القلاقل، استمرت الحملات الدعائية المناهضة لليهود في استثارة الشعب.

في هذه الأوقات المضطربة عُثر على فتاة في التاسعة عشرة من عمرها صريعة في الأول من أبريل عام ١٨٩٩ بالقرب من قرية في بوهيميا الشرقية. كما تبين فيما بعد، كانت هذه الفتاة مذبوحة بجرح غائر في العنق. سريعا ما ألقت الدوائر القومية بالشكوك على اليهود وفي الحقيقة تم العثور على متهم بشكل سريع- صانع الأحذية يهودي متجول يدعى ليوبولد هيلسنر. في حملة منقطعة النظير تم التأكيد على أن هيلسنر ارتكب جريمة القتل الطقسي ضد الفتاة المسيحية كي يحصل على دمائها لأغراض طقسية أثناء عيد الفصح اليهودي. تزايدت هيستيريا العامة المعادية لليهود وافترض أن القتل الطقسي يرتكب في عدد من الأماكن. حتى المحكمة لم تستطع البقاء بمنأى عن هذا المناخ الملتهب. حكم على هيلسنر بالإعدام. كان بوسع الدفاع دحض تهمة القتل الطقسي من خلال الشهود من الخبراء وتعين تحويل القضية إلى محكمة الاستئناف للنظر فيها. الآن ساد الافتراض بأن هيلسنر قام بفعلته هذه بدافع جنسي وهو ما كان بالفعل جزءا من الاتهامات السابقة الموجهة إليه. كما كان هناك افتراض بأنه قام بجريمة أخرى مشابهة، وهي جريمة قتل فتاة لم

تحل حتى ذلك الحين. رغم نقص الأدلة في عام ١٩٠٠ حكمت المحكمة على هيلسنر بالإعدام مرة أخرى، ثم تم تخفيف الحكم بعد ذلك ليصبح السجن مدى الحياة وأخيرا في عام ١٩١٦ تم منحه عفو. في عام ١٩٦١ قام شقيق الفتاة المقتولة بالإدلاء باعتراف على فراش الموت: لقد قتل الفتاة كي لا يضطر إلى دفع مهرها.

القليل عارضوا الرأي السائد في هذه الفترة. من بينهم كان الديموقراطيون الاشتراكيون أهم قوة سياسية حاربت باطراد ضد معاداة السامية. من بينهم أيضاً كان بروفيسور علم الاجتماع وفيما بعد رئيس تشيكوسلوفاكيا توماس ج. ماساريك (١٨٥٠– ١٩٣٧) الذي لقب باسم "فارس اليهود" مما سبب له المتاعب. اضطر ماساريك إلى التوقف عن التدريس بصفة مؤقتة بسبب المظاهرات المناهضة له التي قام بها الطلبة التشيك. في ١٨٧١عام ذكرأوجست روهلينج –بروفيسور في علم اللاهوت من ويستفاليا وقام بالتدريس في فيينا– في كتابه "يهودي التلمود" برهان علمي زائف على صحة الاتهامات الموجهة إلى اليهود بارتكاب القتل الطقسي. في الامبراطورية النمساوية المجرية جرت اثنتا عشرة محاكمة مماثلة بين عامي ١٨٦٧ و١٩١٤ غير أنه لم تنته سوى واحدة منها بالحكم بإدانة المتهم. تأثر اليهود بشدة بهذه الأحداث. انهارت آمالهم العظمى في الاندماج– ليست فقط آمال الطبقة العليا بل آمال الكثيرين من اليهود المهاجرين. في براغ اشتدت الصعاب من جراء "إعادة التطوير" لمنطقة جوزيفوف بين عامي ١٨٩٣ و١٩٠٥ حين تم تدمير معظم الجيتو السابق وحل محله المباني الحديثة. أصبح اليهود الذين عاشوا هناك متفرقين في جميع أنحاء المدينة فقد فقدوا المكان الذي كان يمثل مرجعية هامة لهم. في الوقت ذاته شن الفقر هجوما ضاريا على السكان اليهود. تسببت التطورات الاقتصادية في غرق الكثيرين إلى أدنى الطبقات "الشحاذين" التي بعد نهاية القرن تضخمت بشكل

أكبر بسبب التدفق المتجدد لليهود الهاربين من المذابح في روسيا. نظر معظم يهود غرب أوروبا إلى هؤلاء الفارين بشيء من عدم الثقة والمقت. بينما راي فيهم آخرون- الذين أثناء هذه الصراعات تدبروا أكثر في أمر يهوديتهم- جذور هويتهم.

كان نطاق ردود الأفعال على الوضع الجديد في اتساع ردود الأفعال في غيرها من البلاد الأوروبية الشرقية. يمكن رؤية الميول إلى الاندماج على سبيل المثال في الإحصاءات الرسمية الواردة في الأحاديث اليومية التي كانت تمثل مهنة الانتماء الوطني. في براغ عام ١٨٩٠ أعلن ٧٤% من اليهود أنهم استخدموا اللغة الألمانية كلغة الحياة اليومية غير أنه في عام ١٩٠٠ انخفضت هذه النسبة لتصل إلى حوالي ٤٥%. يوضح هذا مدى قوة المساعي المبدئية التي بذلها اليهود ليصبحوا جزءا من المجتمع الألماني. كما ينعكس التعلق العميق لليهود بالثقافة الألمانية في البيانات الواردة. كتب فرانز كافكا ذات مرة:

أراد الكثيرون [ترك يهوديتهم وراءهم] وبدأوا في الكتابة باللغة الألمانية؛ هذا هو ما أرادوه بيد أنهم بأرجلهم الخلفية تعلقوا بيهودية آبائهم وبقوائمهم الأمامية لم يستطيعوا إيجاد موطيء قدم جديد.[١٠٤]

بينما غيرت الطبقة العليا بالكاد موقفها، بدأت الطبقة المتوسطة بسبب مصالحها الاجتماعية والاقتصادية إعادة التوجه بعد أحداث الشغب قبل نهاية القرن. أعلنوا أنهم تشيكيون على أمل أن يؤدي هذا بالتدريج إلى التغلب على العداوة التشيكية. غير أن هؤلاء اليهود التشيك سريعا ما أخفقوا بسبب الموقف غير المرحب للكثير

---

[١٠٤] هانز كون، بشأن المسألة العربية، في اليهودي الجزء الرابع (١٩١٩- ١٩٢٠): ص. ٥٦٦- ٥٧١. ودت في اليهود في بوهيميا ومورافيا. قاريء تاريخي، تحرير فيلما إيجرز (ميونيخ، ١٩٨٦)، ص. ٢٣٢- ٢٣٧، هنا ص. ٢٣٤، و٢٣٥.

من التشيك الذين كانوا لا يزالون ينظرون إلى اليهود باعتبارهم منافسين أقوياء فيما يتعلق بالارتقاء الاجتماعي. حاولت أغلبية الطبقة اليهودية الدنيا – في سياقاتهم التقليدية– النضال دون الاندماج. انضم بعض اليهود إلى الديموقراطيين الاشتراكيين وانضم آخرون إلى الجماعات الصهيونية. من الأمور التي تحمل أهمية خاصة في إطار البحث عن وعي يهودي جديد كانت مدرسة براغ للصهيونية التي تأثرت بمارتن بوبر. وضع هذا التجديد الثقافي والروحي في مركز الأشياء وافترض وجود موقف تصالحي يتضمن بذل الجهد للتوصل إلى "اتفاق سلمي وودي مع العرب" في فلسطين. صرح المؤرخ والعالم السياسي هانز كوهن (١٨٩١– ١٩٧١) قائلاً : "ألن يمكننا أن نسخر من جميع مشاعرنا تجاه ظالمينا إن لم نعد واقعين تحت الجور وإنما تولينا مقاليد السلطة– وحرمنا العرب من حقوقهم أو سعينا لحرمانهم من أمتهم؟"[١٠٤]

لم يجد الكثيرون مخرجا من أزمة الهوية الخاصة بهم. أدى موقف الكثير من اليهود النزاعين للاندماج – الذي غالبا ما وصل إلى درجة امتهان الذات– في كثير من الأحوال إلى فقدان احترام الذات في ظل كراهية كل ما هو "يهودي". في أحد خطاباته كتب فرانز كافكا:

أحيانا أرغب في حشرهم في درج خزانة القماش لمجرد أنهم يهود (بما فيهم أنا)، ثم انتظر لبرهة ، ثم أفتح الدرج قليلاً لأرى إن كانوا قد اختنقوا جميعاً وإن لم يكونوا قد اختنقوا أدفع بالدرج لينغلق ثانية واستمر في فعل هذا إلى أن تنتهي المهمة.[١٠٥]

طور يهود آخرون معاداة خاصة للسامية مناهضة ليهود شرق أوروبا الذين أساء الناس معاملتهم باعتبارهم "ديدان ضارة". هذه الجماعات المعادية للسامية كانت تمول بصراحة بشكل كبير من

[١٠٥] فرانز كافكا، خطابات إلى ميلانو (فرانكفورت ، ١٩٥٢)، ص. ٥٧.

تبرعات اليهود . كانت هذه مرحلة محزنة للغاية . ظهرت مثل هذه الميول أيضا في أماكن اخرى على سبيل المثال في ألمانيا خاصة ضد اليهود شرق الأوروبيين الذين كانت تلقى عليهم باللائمة لإثارة معاداة السامية وإخفاق الاندماج. كانوا بطبيعة الحال ذوي أهمية هامشية فقط غير أنهم ساعدوا على تأكيد التحيزات عند الدوائر غير اليهودية لأنها كانت تسلم بأنها ذات مصداقية.

عبرت نسبة كبيرة من ردود الفعل هذه عن عجز الكثير من اليهود – النابع من الافتقار إلى الفهم الجيد للتغيرات الجذرية الاقتصادية والاجتماعية. فقد اليهود وظائفهم التقليدية كما فقدت القيم التقليدية مصداقيتها . من حيث المبدأ، ماثلت هذه المشاكل المشاكل التي جابهت اليهود الشرق أوروبيين في بولندا وروسيا وغيرها من البلاد (كما نجد هذه المشكلات أيضا ، بمظاهر مغايرة، خارج الشعب اليهودي) .

oseikandl.com